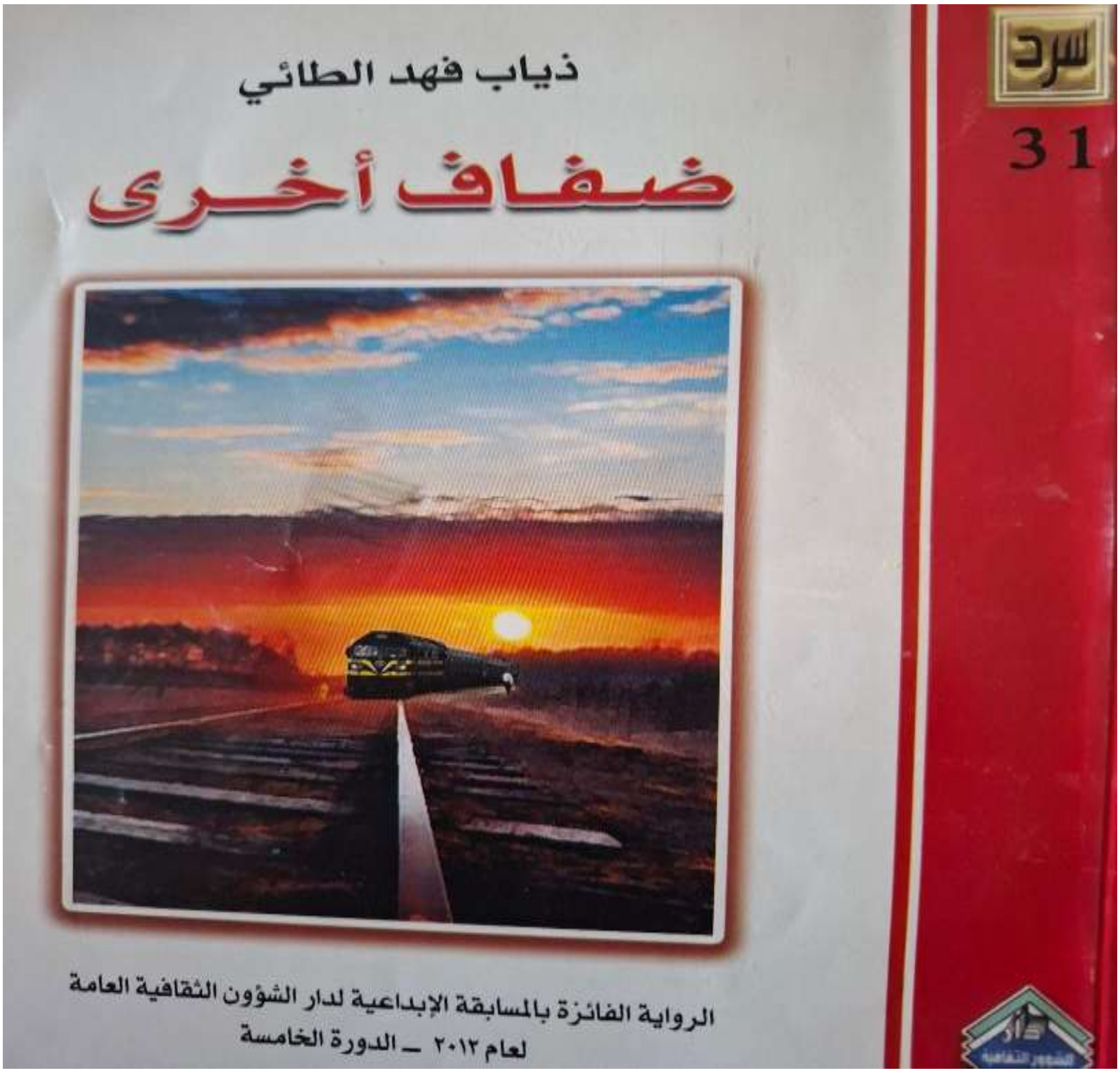
سرد
31
ذياب فهد الطائي
ضفاف أخرى
الرواية الفائزة بالمسابقة الإبداعية لدار الشؤون الثقافية العامة
لعام ٢٠١٢ ـ الدورة الخامسة

ضفاف أخرى

رواية

ذياب فهد الطائي

أنت تتعجل الكتابة ,,
كأنك كنت متأخرا عن الحياة

إذا كان الأمر فعلا كذلك،
اجعل لمنابعك موكبا وحاشية
عجل"
رينيه شار 1938

الفصل الأول

شمس الشتاء فضولية، ودفئها المخاتل الذي يندفع بين غيمتين، لا يسمح الا بزقزقة عجلة لعصافير ضالة حطت على شجرة الزيتون التي لا تعترف بالفصول وهي تقف بلا مبالاة ظاهرة عند مدخل البيت، الضوء الأبيض يجاهد بإصرار ليغطي المدينة ، الموت الذي يسكن الأزقة له طعم مر ورائحته تبعث على الغثيان والضوء الأبيض يعطي الفاجعة ابعادا اكثر مرارة: اكرام الميت دفنه، وفي كل صباح ننسى ذاكرة الليل الفائت وندفن في عمق ذاكرة مخرومة كل الصور والأحاديث ويظل البكاء مؤجلا ، كانت الصحف العربية الثلاث التي وزعت علينا في الطائرة تحمل ابعادا بانورامية لما يجري في العراق والأنظمة العربية المتفرجة أو الشامتة تقف كحارس الظلال .

اندفعت موجة هواء بارد وانا افتح الشباك لأرى الحديقة الصغيرة التي اكلتها نباتات (الحلفاء) وحشائش لم اشاهد مثيلها تتمدد بكل الاتجاهات، تماما كما هم الناس اليوم في بغداد ، حين غادرتُ شمال النمسا كنت ابحث عن الدفء، هذا الذي تظل حاجته في عمق مشاعرنا التي قد يكون الحديث عنها ترفا ، قال رجل كان الى جانبي في الطائرة التي غادرت مطار دبي الساعة الواحدة بعد الظهر، والتي كان من المقرر لها ان تغادر الساعة العاشرة صباحا ،الذي تعرفت عليه في صالة الانتظار:

- فكر بتروٍ ، ان منطقة بيتك ربما تكون ما تزال خطرة ، الأسبوع الماضي كنت هناك وما زالت القوات الأمنية تتردد في انشاء نقاط ثابتة لها ، ولكن وبدون حساسية كيف غامرت بالمجيء ؟ لا بد ان لديك عملا لا يقبل التأجيل !!

لم ارد عليه وحينما كانت الطائرة التي عمرها اقدم من عمر الرذيلة، تلف حول المدينة التي بدت منهكة فيما يمشي دجلة محكوما بقدر مضجر وكأنه يرسم فاجعة الزمن الذي يتمدد بحزن موجع ، قلت:
- لكل قدَرُه !

لم يفهم ما أ رمي اليه ولكنه هز رأسه موافقا، ربما لينهي الحديث وهو يتشبث بمقعده والطائرة ترتجف وهي تلامس ارض بغداد.
الرجل الذي رافقني في صالة مطار دبي والذي انشغل عن الحديث وهو يلتهم قطعة الفطيرة التي تغير طعمها بسبب مدة الخزن بانتظار تقديمها بعد التوقف الذي اعلنته شركة الخطوط العاملة بين بغداد ودبي ، لم اشاهده وانا انتظر حقيبتي على الحزام الناقل في حين انشغل الآخرون بتتبع حركة الحزام وكأنهم يعلنون ان كل ما كان بينهم خلال الساعات الطويلة الماضية قد انتهى، علاقات السفر عبر المطارات لا تدوم، وحتى عبارات المجاملة او نظرات الأعجاب

وربما الاستلطاف الذي قد يوحي بعلاقة حميمة كل هذا له في المطارات مسارات خاصة فهو عادة ما يتوقف عند استلام الحقيبة والبحث عن سيارة تاكسي تنقلك الى وجهتك .

موظفة المصرف التي بدت وكأنها تعاني من سوء الهضم ، تراوح بمكانها في الغرفة العارية الجدران فيما توحي القضبان التي تفصلها عن المراجعين بغرفة سجن مرفهة ، قالت بانها تعتقد ان اقوم بتغيير العملة في المدينة لأن اسعارها والعمولة التي يتقاضونها غير ملائمة لي وانها تقدم هذه النصيحة من باب الخدمة.

انتصب امامي شاب مرح با بتسامه ودودة:

- هل تحتاج الى تاكسي؟

يتلاعب في عينيه مرح طفولي وكأنه خارج الملعب العراقي ،فكرت انها مصادفة تحمل الكثير من الاشارات ، ربما لأن ابنتي ودعتني في المطار وهي تصر على قراءة آية (الكرسي) ثلاث مرت ، عندما صعدت السيارة وحين ترجلت منها وعند التوجه للطائرة ، كانت تلهج باستعجال وكأنها تسابق النداء اللجوج الذي يصر انه النداء الأخير للتوجه نحو الطائرة المغادرة الى دبي، محطتي الأولى في الطريق الى بغداد ، فيما يتباطأ المسافرون في مسيرتهم وكأنهم مرغمون على السفر! لم تكن في عيونهم فرحة اللقاء المرتقب بل كانت نظراتهم تشي بانهم يتجاوزن اقدارهم باتجاه منطقة مضللة بالخوف.

- كم الاجرة ؟

في العراق ، سوريا ، مصر ، وكذلك في تايلند عليك ان تحدد السعر قبل بداية الحديث مع البائع ورغم ذلك فانك الخاسر في نهاية المطاف.

- ما تتفضل به !
- اعتقد ان من المهم تحديد السعر والا ..!
- حسنا كما تشاء خمسون الفا.

- لابأس

- دقائق لأحضر السيارة.

في طريقه الى الخارج لاحظت انه يتمتع بعلاقات واسعة كان العاملون في

الصالة من عمال النظافة وبعض موظفي الشركات يتحدثون معه بمرح. الصبي الذي كان يمسح الأرضية اعطيته دولارين، نظر نحوي باستغراب فقلت له انها عن مساعدتي حينما تأتي السيارة ، قال :
- هل ستذهب مع حسن !

- نعم ، هل تعرفه؟!

- انه يعمل في المطار والجميع يحبه ، تصور انه عندما يعود يوزع كميات من الخبز على نقاط السيطرة وعلى العمال ، حسن ابن عشائر!

بيتنا المتروك منذ بضعة سنوات تسكنه رطوبة اعمق من ابعاد الغربة، وعذابات الوحدة في اوربا. كنت احاول ان اتسلى هناك بالقراءة او بالانصات الى موسيقى بتهوفن في ساعات الليل الشتائي الطويل .

قال حسن : الحاج قادم من اوربا؟!

كان صوته مفعما بودٍ مرح.

- نعم

- القليل اليوم يأتي من اوربا !... لقد حاولت ثلاث مرات الذهاب ولكني فشلت. في الأولى وصلت الى اليونان ولكن الشرطة القت القبض على المجموعة بشاحنة في الطريق الى اثينا، وفي الثانية لم استطع توفير المبلغ الإضافي الذي طلبه المهرب الأردني ، تصور انه اتفق معي على ثلاثة آلاف دولار ولكنه كان يأتيني اسبوعيا للمطالبة بزيادة اضافية بحجة ان الظروف قد تغيرت وحين طلبت منه اعادة المبلغ الذي وصل الى ثمانية آلاف اعاد لي الفين فقط وعند المساء حضرت الشرطة الأردنية لتسفيري، القوني بسيارة شرطة كمجرم خطر وسلموني للشرطة العراقية باعتباري (مشاغب)، صمت كانه يستذكر ما حدث و الذي ترك في قلبه مرارة ما زال يحس طعمها على شفتيه فقد اصبح حديثه مفعما بشجن عصي على النسيان.

تابَع قائلا : اما الثالثة فقد كانت في تركيا ، اختلفنا مع المهرب فتركنا بعد ان سلب كل ما معنا واضطررنا للعودة مشيا الى كردستان.

عند الباب قال : ارجو ان تحتفظ برقم هاتفي فقد تحتاج الى المساعدة ! انا اعمل في المطار ولكن وقتي يسمح بان انقل مسافرا كل يومين ، على الأقل استطيع ان انجز لك بعض المعاملات التي قد تحتاجها وان اعود بك الى المطار لاحقا .

على شجرة الزيتون كان عصفور يجاهد ليتخلص من شعر نسائي احمر علق برجليه، ربما كان يلهو به! نزل الى الأرض وبدأ يحاول بمنقاره الصغير فك الاشتباك ، كان يتصرف بصبر مثقل بالخوف فهو يتلفت بسرعة دون ان يفقد العودة الى ذات المكان الذي كان يفككه.

فتحت الباب بتؤدة ولكنه لمحني فحاول الطيران الا انه فشل فقد خانته رجلاه ، امسكت به وهو يرتعش ويخفق قلبه بتسارع جعلني اعتقد انه قد يموت في يدي ، اسرعت بفك وثاقه وتركته يطير مسرعا الى ما خلف شجرة الزيتون .

حين تركنا البيت قمنا بجمع الزجاجيات والأواني والقطع الصغيرة بعلب كارتونية وأصرت زوجتي على ان تغطي قطع الأثاث بالقماش ، اما اجهزة التكييف فقد لفتها جيدا بالنايلون السميك ... حسنا نحن لا نعرف ما اذا كنا سنعود قريبا ! ولم تنس ان تمر على الجيران لترجوهم ان يراقبوا البيت.

قالت ان البعض لم يخفي حسده على ان بمقدورنا السفر فيما يظلون هم تحت رحمة الخوف من المجهول ، ولكنها ردت بصبر: التشرد ليس مكرمة من اقدار تتحرك بلؤم ، ادعوا لنا ان نعود بسرعة.

لن تستطيع ميسون العودة ... ربما هذا هو الأفضل لها فقد اسرعت بالمغادرة ، هل كانت تعرف ما القادم ولذلك فضلت البقاء في ارض غريبة على ان تعود لتجد الدار وقد نهبت ، حتى الأبواب تم قلعها والجيران كانوا يتفرجون ! ما الذي بمقدورهم ان يفعلوه امام فوهات المسدسات وعنف الصراخ الذي كان يعلن دون مواربة ان من حسن حظنا اننا في الخارج !

الليل الذي يمشي ببطءٍ متواطئ مع الكهرباء التي ما تزال ترفض ان تدخل البيوت ، كان شاحبا وبلا اسرار، ففي بغداد اليوم تنعدم التلوينات اليومية ويختفي الناس ما ان يبدأ الشفق المخاتل بالهطول على الشوارع ... البرد يتقدم الليل في شباط وبدون اية وسيلة للتدفئة يصبح الزمن اكثر واقعية لأنه يستهلك الثواني بتراخ قاتل ولا يمكن المكابرة ان العراق في انتقال !
فكرت ان استلف من الجيران شيئا من الوقود ولكن احدا لم يرد علي وانا اطرق الباب الأول ثم الثاني ، تقدم رجل نحوي:

- هل استأجرت البيت ؟

حسنا لتكن لعبة التعارف فأنا المنفي تنكرني دروب (المحلة)

- نعم ولكني استغرب وكأن لا احد يسكن في هذه البيوت !

ـ كيف استأجرت البيت ولم يخبرني احد بذلك !!

تساؤل ادنى الى الفاجعة وبالتأكيد لن يكون الجواب المباشر الا الفاجعة نفسها ولكني استمرأت لعبة التعارف.

:- ربما لأن الموضوع تم على عجل !

في نظراته بدا شك خبيث وعدواني

ـ لم الاحظ انك استقدمت اثاثا !

اللعبة لا بد وان تنتهي عند نقطة تتحدد فيها المواقف ... الربح أو الخسارة.

الرجل الضئيل المتخفي في رداء فضفاض بني داكن اللون كان كمن يتكلم من بطنه فشفتاه الرفيعتان لا تنفرجان في حين يأتي الصوت ناعما وباردا كأنه صوت محقق مديرية الأمن المعبأ بزهو مضاعف عام الانتصار في (القادسية الثانية)، وهو يؤكد اني لابد وان اكون على علاقة ما بدمشق لأن التحريات اسفرت عن احصاء عشرة مكالمات هاتفية مع ثلاثة اشخاص في سوريا خلال شهر واحد !

ـ ولكن يا سيدي كنت اتكلم مع بعض افراد عائلتي الذين يملكون مصنعا هناك ويحاولون اقناعي بالعمل معهم لأني املك خبرة ادارية واسعة، فأنا متخرج في كلية بريطانية بإدارة الأعمال الصناعية وقد اشتغلت باختصاصي اكثر من عشرين سنة وانا الآن متقاعد اصوليا ورسميا . بالطبع اعتبر هذا عذرا غير مقنع، كان بالنسبة لي صوت كأنه قادم من كوكب آخر فقد كانت عيناي معصوبتين وكنت منهكا ولكني جمعت ما تبقى من شجاعتي لأقول:

ـ صدقني فانا لا اعرف انه يجب مقاطعة الأهل الذين يسكنون دمشق والا لكنت اقفلت الخط بوجوههم فأنا لست مستعدا ان ادفع ثمن سفرهم الى هناك !!

السخرية كانت مغيظة له، سمعته يصر على اسنانه فيما اخترق اذني اليسرى صفير ضربة مدربة تماما على تمزيق الطبلة !

ـ الأثاث سيأتي بعد غد !

ـعليك ان تعطيني هوية الأحوال المدنية وبطاقة شرطة الحي الذي كنت

تسكنه.

- غدا ان شاء الله ولكن هل تساعدني بتسليفي بعض الوقود لإشعال المدفأة، تصور اني وجدتها في الممر الخلفي ، اليس هذا من محاسن الصدف !

لم يرد ، استدار عائدا وهو يحاول ان يعطي نظراته صرامة مفتعلة فقد كان في عمق احاسيسه شعورا عميقا بالدونية .. ولكن كيف اصبح هو الوريث الرسمي للحي !

كان الوحيد الذي ما يزال هاتفه معي هو عدنان احد اصدقاء مقهى حسن عجمي، ومن حسن الحظ ان هاتفي يمكن ان استخدمه عند الضرورة فالمكالمة تعني الاتصال بمركز البث في النمسا والعودة ثانية الى بغداد ، ولكن اية ضرورة اشد قسوة مما انا فيه، لا كهرباء ولا تدفئة ولا اغطية او فراش للنوم وسيارات التكسي لا تأتي والدوريات الأمريكية لا تقدم الخدمات والشرطة العراقية ليس من السهل الوصول الى النقاط التي تتمركز فيها .

قال عدنان كلاما كثيرا عن ترحيبه بعودتي رغم انها لم تكن في الوقت الملائم ففي كل زاوية هناك خطرٌ يتهدد المواطن وليس من السهل التنبؤ متى ستفاجئك مفخخة بانفجار يأخذك معه... ان تذهب ليس هو المشكلة ولكن الذين ستتركهم هو جوهر المأساة فالمفخخة لن تفكك حياتك، انها تنهيها وستكون بعيدا عن اية مشاكل مستقبلية ولكنها تفكك حياة عائلتك ، الأرامل قضية كبرى سيواجه المجتمع العراقي تداعياتها لاحقا ، قلت له ان كل هذا وربما اكثر منه صحيح ولكني الآن اواجه مشكلة ملحة .. انا بحاجة الى شيء من الوقود وبضع بطانيات الى الغد فقط حيث استطيع شراء احتياجاتي، قال بانه يقدر حالتي ولكن من المتعذر خروجه الآن ويمكن ان يعطيني عنوانه واحضر للمبيت عندهم ، لم نتفق ...ولم اشأ ان انهي صلتي بآخر الرجال الذين اعرفهم في بغداد ، قلت له: حسنا ، يمكن تدبير هذه الليلة ولكن هل استطيع ان اراك غدا وقبل التاسعة صباحا؟
قال : لا بأس ولكن اين ولماذا ؟

- اين اتركها لك وان كنت افضل ان نلتقي عند دائرة الجوازات في الكرخ لأن جوازي منته ولم انتبه لذلك ، لقد نبهني ضابط الجوازات في المطار !

- اذا عند دائرة الجوازات.

منذ ان توفيت زوجتي ازداد معدل عدم انتباهي للعديد من الأمور اليومية لا لأنها كانت تذكرني بالتفاصيل وانما لأن مغادرتها تركت في قلبي كمية كبيرة من الألم وما عاد في حياتي ذاك الشغف .

كانت تتملكني عشقا فأحس معها دائما برعشة اللقاء الأول مع امرأة تختبئ في عينيها كل نجوم ليلة صيف يتملكها صحو فيما يغمز قمر مخاتل يتوارى في ظلال اهداب ترسم فرحة حقيقية ويصبح كل ما في العالم اجمل واكثر وضوحا ، كانت دائما تمتلك دفقا من بهجة تلقائية.

في الغرفة التي حلمنا فيها ونحن نمضي الليل نستمع الى اغنية يتواطئ صوتها الخافت والعتمة التي تتمدد فوقنا ، شممت رائحتها ، كنت اصر دائما على ان تضع بضع قطرات من عطر فرنسي على جيدها ، كانت تضحك وتقول انها كانت ستغار لو ان اسم الذي اكتشف هذا العطر امرأة اذ ربما اكون قد عرفتها وانا في الخارج ولكن ماذا افعل وهو رجل!

من حسن الحظ ان الذين سرقوا البيت لم يخطر ببالهم ان يسرقوا الذكريات التي تملأ المكان والا ماذا كنت سأفعل ؟ ميسون وتاريخ ابنتي البعيدة الان وكل الطموحات والالام التي عشتها طوال ثلاثين سنة في هذ البيت ما تزال حية تتحرك الآن بضجة في خواطر ذاكرتي حتى اني اسمع صوت ملعقة الشاي وميسون امامي وابنتي تردد اولى حروف اللغة التي تتدرب عليها.

على الأرضية بقايا من شظايا قنينة العطر الذي كنت اتشمّاها ، ثانية تقف امامي ميسون بكل براءة نظراتها الأنثوية بقميص النوم الأزرق كانت تقول هذا اللون الذي احب انه اللون الملوكي لون حلم السماء بسعتها اللامتناهية والبحر بكل السحر والجلال والغموض فأقول لها ضاحكا: والعنف العاصف ايضا ، جمعت الشظايا ووضعتها في كيس صغير وشعرت اني اخبئ كنزا ثمينا وعزيزا على قلبي .

الغرفة التي حملت كل ما فيها اياد آثمة وما عادت الا جدران عارية لازالت تسكنها روح آسرة بالجمال والسحر ، استعيد عيني ميسون اعمق من كل الورود ، تماما كما كنت اراها مساءً واشم رائحة العطر الخفيف كأنه مطر ربيعي ملون بالفرح ، الوسائد والشرشف المتدلي الى الأرض بأزهاره الغريبة والزاهية تبعث في قلبي دهشة ، وميسون كأميرة سومرية ما زالت تخفق ظلالها في تدافعات ضوء خافت من جانب السرير فتعطي الزمن معنى آخر لا تحصيه الثواني، وانما ارتعاشات الأصابع الناعمة وهي تتبعثر على تهويمات الفرح وتتجمع ثانية فوق موجات عطر القرنفل ، لماذا تكمن في بعض الأشياء الصغيرة قوة غير متناهية قادرة على استحضار ادق تفاصيل الذكريات البعيدة !

الغرف تتعرض لتيّار المساء البارد فالزجاج المحطم يغري كل الراغبين بالدخول، ماءت قطة بشيء من العصبية والاستغراب وهي تتطلع نحوي وقد

تضخم ذيلها الأسود الذي كانت تلوح به كأعلان عن استعدادها للمعركة فيما تجمع حولها ثلاث صغار يرضعون بشراهة .

بحثت عن مكان يمكن ان اتدارى به من الهواء ، كان الحمام الواسع أقل تعرضا للتيار البارد فالشباك الصغير يمكن ان تسده بضعة مجلدات من الأنسكلوبيديا البريطانية ، انهم لا يحبون الكتب ولا يغامرون بالمتاجرة بها ، كانت على الأرض يملؤها تراب بغداد الناعم ، على جانبي الأنسكلوبيديا وبهدف احكام غلق النافذة التي كانت تشغلها مروحة سحب الهواء الى الخارج، وضعت على اليسار رواية اوسكار وايلد (صورة دوريان جراي) وعلى اليمين كان كتاب برغسون (اصل الأخلاق) الرواية كانت تسمح بفراغ بسيط لطرد الدخان الذي سيتسبب به اشعال كمية الفحم التي وجدتها في الممر الخلفي مع (منقلة) جلسات الشواء التي كنا نتجمع فيها يمطرنا فرح اغتالته السياسة .

تحت الفحم وضعت بضع صفحات من جريدة محلية بدأت صفحاتها بالأصفرار واشعلت عود ثقاب كان من بقايا بضعة اعواد اصرت ابنتي ان تحصيها بالعدد وتستحلفني بروح (العزيزة) ان التزم بتدخين ثلاث سكائر في اليوم !

كانت ميسون تلح ان اترك التدخين ولكن اية مفارقة غريبة ان يكون الضار والمحذور هو الذي سيجعلني اعبر هذه الليلة دون أن اصاب بنوبة برد قاسية قد تتسبب باضرار جانبية وغير متوقعة !

مع الدفء بدأت استرخي فيما نعاس أقوى من تدافع الذكريات يستولي على حواسي ولكن الدخان المنبعث من الفحم غير المشتعل ينتشر ليسد منافذ التنفس ، كانت رواية اوسكار وايلد قد انفتحت صفحاتها جراء الهواء المندفع الى الخارج فسدت الفتحة الصغيرة ليتكدس الدخان في جو الحمّام ،يعاود دوريان جراي خبثه ويبدي عدم مبالاة بحالتي وقد يكون مسرورا لأني ارتجف من البرد !

مؤلف برغسون كان ثابتا، انه ينظر نحوي بشيء من الثقة لأني امارس حريتي في هذا المكان المنعزل من اجل حماية نفسي لتحقيق الراحة التي احلم بها ، صورة ميسون تتخايل في تلوينات الدخان عند الجانب الاخر من النهر السحري حيث تغفو اشجار مثقلة بثمار لم اعرفها من قبل فيما تظل ازهارها تتفتح لتشرب الندى ، الأشجار التي اعرفها تسقط ازهارها وهي تفصح عن ميلاد النواة الجديدة .

فتحت المتبقي من الباب الخشبي الذي لم يقم اللصوص بخلعة، انهم يعرفون جيدا قيمة السلع التي يتعاملون بها فقد كان باب الحمام هو الوحيد من الخشب

المضغوط وقد نالت منه الرطوبة، ربما لأنهم شعروا بالأسف لذلك قام احدهم بتوجيه ضربة عنيفة له فانكسرت القطعة الأمامية ولم تعد تستر الحمام الا القطعة الخلفية ، كانت تفي بالغرض !

في غمرة انشغالي الكلي بتدبير اموري الصغيرة للحماية من البرد نسيت اني في بغداد التي غيرت قسماتها وشاخت وهي ترتجف تحت وطأة خيول الموت التي تعبر طرقاتها والتي سحقت كل ورود الكاردينيا الجميلة، وشجيرات ملكة الليل ذات العطر المفعم بشذى رائحة منعشة، وان في الخارج ما يزال صهيل العدم يتردد صداه فتقفر الشوارع ، بضع رصاصات اقتحم ازيزها كميات الدخان الذي ما يزال ينعقد في الحمام ليضاعف العتمة، ولينشر جوا من الغموض الكئيب بدأت اراه امامي ، لم يفاجئني قلق الموت فقد كنت اعيشه ولكنه قلق وجودي يبعث في نفسي دائما فعالية المقاومة والبحث عن الممكن ولهذا كنت اضع امامي باستمرار اهدافا أعمل على تحقيقها ناسيا الموت او مؤمنا انه اذا كان الموت ممكنا فان الحياة هي الحقيقة .

بدأ جو الحمام يتخفف من الدخان وبدأت جمرات الفحم تبعث توهجا كابيا ولكنه ينشر الدفء في جسدي الا اني ايضا اشعر برطوبة الأرضية ، تذكرت ان (رؤى) أصرت ان تضع في الحقيبة الصغيرة منشفتي حمام كبيرتين، حشرتهما بقوة، قالت اعرف انك لا ترتاح لاستعمال مناشف الفنادق ، قالت امي مرة انك مهووس من هذه الناحية من الصعب ان تتصور انسانا قبلك قد وضعها على جسده .

حين فتحت المنشفتين لأضعما على الأرض سقط منهما مذياع صغير كنت استمع اليه صباحا ونحن نتناول افطارنا ، كانت ابنتي تقول ان اكثر ما كان يضايقها صباح الجمعة هو نشرة الأخبار من الأذاعة البريطانية وصوت الموسيقى المتميز ولهجة المذيعين المترفعة ، البطاريات جديدة وبدأ المذياع يصدح بأغنية لأم كلثوم ، العرب وربما كلهم ينصتون لأغاني الحب حتى في الليالي التي لا يغيب فيها الموت عن شوارع المدينة ، كان قائد الكويت العسكري يصل عادة متأخرا الى البصرة وكانوا يعدون له رأسي خروف وقنينة عرق لبناني وشريط أغاني منوع ولكنه يصر ان ينام على صوت ام كلثوم وهي تنشد (سيرة الحب) .

كان مع المذياع كتاب تعرفت عليه من تغليفه الفاخر ، كان نسخة من ديوان الشعر الثاني لرؤى، تكتب بالألمانية قصائد عشق عربي وكنت اقول لها ان هذا يشكل مفارقة ساذجة فترد انني طفلة بثقافتين وحينما اكبر سأكتب عن الثقافة الثانية !

مع الكتاب كانت ورقة مكتوبة بخط اليد تصورت انها تتضمن نصائح رؤى لي

للعناية بصحتي ولكني حينما فتحتها وضوء الفجر يتسلل بارتياب خائف كانت تطلب مني ان اقرأ ديوانها على مهل وان اكوّن عنه وجهة نظر نقدية بعيدة عن المجاملة وغير منحازة ، "الانحياز في النقد الأدبي نكوص الى الخلف، انه اخطر من السلبية ولأني اثق بذائقتك الأدبية فاني اصر ان اقرأ رأيك مكتوبا .... ابنتك رؤى."

وضعت ملابسي تحت رأسي ورحت باغفاءة لذيذة لم تستمر طويلا فقد كانت عشرات المآذن ترفع اذان الفجر ، حسنا انها بيوت الله التي لا تنقطع فيها الكهرباء ، ظهري كان يتصلب وحينما انتهى الأذان عاد الصمت ثانية يقبض على سماء المدينة ويرسم ظلالا موحشة وكأنه ينذر بفاجعة اخرى ، شعرت بشيء اشبه بالخوف الغامض ، كنا في الممر الطويل معصوبي ألأعين وحفاة وبين آونة واخرى نتلقى صفعات متتالية وقاسية دون اي كلام وقد فهمت ان هذه احدى وسائل الرعب فأنت تظل لساعات لا تعرف ماذا ينتظرك وحين تستدعى للتحقيق فانه من المفترض ان نصف مقاومتك قد انتهت وعليهم ان يعالجوا النصف المتبقي.

كنت اقرأ المعلقات وحين تدوي صفعة حادة على وجهي ويندفع خيط من الدم الحار الى خدي فأني اعاود قراءة المعلقة التي كنت عندها من البداية ، العراقيون شعراء بالفطرة ولهذا فهم الأكثر ميلا الى التراجيديا .

كنت اتشهى ولو كأسا صغيرا من الشاي وسنوات الغربة لم تحولني الى مدمن للقهوة ، الشاي لا يحمل الكثير من الرومانسية ولكنه يحمل بهجة لذيذة تذوب على الشفاه ومنذ تعرفت عليه ونحن نعده بذات الطريقة ، الماء المغلي وملعقة الشاي ، القهوة هي التي تحمل رومانسية تتهادى ببطء وانت ترشفها على مهل فيما ترسم على حواف الفنجان خطوط ايامك القادمة ، كان ابي يقول ابريق الشاي يمكن ان تصنعه في كل المواسم اما القهوة فهي صناعة تحتاج الى العناية المركزة ولهذا كان يقضي الساعات امام ثلاث (دِلالٍ) بأحجام مختلفة لتحضير قهوة شهر رمضان وكانت ميسون تصر ان نشرب القهوة عنده بعد ساعة من الأقطار واليوم ابتكرت عشرات الأجهزة بالوان مغرية لصناعة القهوة.

كانت قنينة الماء التي اشتريتها في المطار هي كل ما يمكن ان استعمله لغسل وجهي على الاقل قبل الخروج الى موعدي مع عدنان، فالماء مقطوع عن المنطقة منذ ثلاثة ايام وبدلا من اعمال التخريب او عدم توفر الكهرباء للضخ فان الحجة كانت (أعمال الصيانة الدورية !!!)

جمعت حاجياتي المبعثرة واعدتها ثانية الى الحقيبة ولكني فشلت في حشر المنشفتين فعلقتهما على الحائط .

شعرت اني مجهد تماما ولم ارغب في التطلع الى وجهي في مرآة الحلاقة الصغيرة لأني لم اكن ارغب في رؤية نتائج النوم القلق وانا ارحل كل لحظة مع ليل بلا جهات وحتى دونما مساحة اهرب فيها من الكوابيس .

وجدت صعوبة في العثور على سيارة اجرة وحين توقفت سيارة فارهة امامي اعتقدت ان منحة من السماء قد حلت علي ، قال شاب في العشرينات : الى اين ؟ قلت له ولكني قد لا اكون على طريقك !

قال الشاب : انا على باب الله وطريقي حيث تذهب

قلت: حسنا الى دائرة جوازات الكرخ.

علق الشاب : الجميع يغادر !

قلت محدثا نفسي: الا انا فقد جئت ولكن مؤقتا.

الفصل الثاني

الصباح الماطر خفف من البرد الذي تتعرض له بغداد ولكنه اضاف صعوبة جديدة الى تنوع المشاكل التي يتعرض لها الناس وعلى وجه الخصوص سكان المناطق الشعبية التي لم تعد في الحزام الخارجي للمدينة وانما تداخلت معها على نحو يعطي انطباعا راسخا بان الطبقة الوسطى والتي كانت اساس النشاط والأبداع قد اختفت، وان خط الفقر قد تمدد الى الداخل ، البرك المائية اعادت الى ذهنة السؤال الساخر : من هو اكبر الأهوار في العراق ، والذي اجاب عليه احد طلاب المدرسة المسائية لمحو الأمية:

- شارع الرشيد بعد ليلة ماطرة

كان ذلك قبل اكثر من خمسين سنة ولكن بغداد ترواح مكانها في حين ان مدنا عربية نشأت في ستينات القرن الماضي تعبر الصحراء وتدخل في عمق البحر ، لا بد ان شياطين اخرى هي التي تولت امرها !

عدنان يقف على الرصيف الآخر المقابل لدائرة الجوازات ، بدا وجهه مكتنزا وقد اختفت الغمازتان على جانبي فمه وبلحيته القصيرة المصبوغة بالحناء كان اشبه بأحد الممثلين في مسرحية انكليزية قديمة ، كان يرتدي معطفا بلون الخردل المغبر وعلى عينيه نظارة داكنة، حين احتضنه مرحبا نزع النظارة ، كان في نظراته نزقا وشيئا من الاستعجال فهما تدوران على نحو متواصل، اختفت تماما النظرات المترددة واللامبالية التي كانت تتطلع نحو اصدقائه في مقهى حسن عجمي وهم يتحدثون في السياسة على نحو موارب وملتو في حين يدخن هو (الأركيلة) نافثا دخانها ببطء وهو يغمض عينيه ملتذا بطعم الدخان المحصور في صدره.

امام مكتب الجوازات طابور طويل من المراجعين والشرطي الذي على الباب يدقق بالمستندات ويتولى بعد ذلك شرطي آخر تفتيشا دقيقا للداخلين من الرجال فيما كانت امرأة ترتدي حجابا اسودا وعباءة تفتش النساء.

قال عدنان : سنتحدث لاحقا ، الآن اعطني جوازك وانتظرني !

لا أدري لم شعرت ان ضبابا ربيعيا يدور حوله وان شيئا اقرب الى الرمزية المزيفة يسيل من يديه الى الأرض الاسفلتية التي يعبرها ثم وهو يختفي بين الجمع الذي رغم العنف المكبوت الذي يملأ قسمات وجوههم فان استسلاما غبيا كان يشد الشفاه فتأتيني اصواتهم همهمة لا يمكن تبينها.

بدا الأطفال اكثر صبرا وهم يقفون في الطابور بهدوء مستجيبين لقبضة ذويهم بكل ما تحمله من جدية وترقب مفعم بقلق حاد يغالبون مشاعرهم ليظلوا

صامتين، اطفال العراق يكتشفون بوقت مبكر تحديات الحياة التي سيواجهونها وربما هذا على نحو فطري وتنشأ في وعيهم دواعي الاستجابة ، هل يستوي اطفال العراق مع اطفال العالم ؟ دار بذهنه هذ السؤال ووجد ان الاجابة قطعا ستكون لا .. لا كبيرة فالزمن ليس خطا مستمرا ولا هو تراكميا ولكنه توتر مستمر مفعم بقلق وجودي عن التحديات اليومية ، سمع طفلة في التاسعة تتحدث عن زميلتها التي تعرض بيتهم لقصف عشوائي بقذيفة (هاون) وشوهت شظية الجانب الأيسر من وجهها، كانت تتحدث بحيادية وكأنها تستعيد مشاهد من فلم عرضته شاشة التلفاز.

شعر بأن حوارا صامتا يتبادله مع الصغار، حالة من الفهم اكتشفها وهو في الغربة ينتظر ساعات محققة دائرة الهجرة واللجوء ، كان يتطلع الى وجوه المنتظرين ويحاول ان يتابع الإيقاع الذي يطوف عليها ويحوله الى معان يعطيها حروفا كيما يقرأ على مهل متعرفا على ما يعتلج في نفوسهم من خوف وترقب وحتى عصبية بعضهم التي يحاول ان يداريها باللعب بأصابعه

قال كاتب العرائض الذي اقف قربه : استاذ اذا كنت عجلا يمكن تدبير معاملتك !

- شكرا ، انا بانتظار صديق !

- انا هنا منذ عشر سنوات واستطيع ان اعرف صاحب الحاجة كما اني اعرف جيدا الموظفين الجدد ، كان القدامى اسلس بالتعامل اذ وبمرور الزمن اصبح لهم سياقات تعامل محددة ، اما هؤلاء!
صمت لحظة كأنه يبحث عن كلمة ملائمة

- انهم بحاجة الى ان يجدوا السياقات التقليدية لتسهيل العمل !.. جميلة هذه السياقات التقليدية، لقد قرأتها قبل لحظات في رواية مترجمة ، الغلاف ممزق وقد وجدتها على سرير ابني ولأن اوقات الفراغ طويلة فأنا احاول ان اتسلى بالقراءة .. والان هل استطيع المساعدة ؟

- شكرا وسأعود اليك ولكن صديقي في طريقه نحوي

- آه ، لقد فهمت ، صديقك يعرف الأستاذ مصعب .. معاملتك منتهية ولكن

عليك ان تدخل بازارا حاميا فمصعب اجوره مرتفعة عادة !

في عيني عدنان لا مبالاة وهو يمشي مع موظف الجوازات ، عرفنا لبعض
- صديقي فالح ، صديق الجميع ابو ذكرى

مد ابو ذكرى كفا باردة ورحب بعبارات مطّاطة وهو يتفحصني بعناية

- حدثني عدنان بموضوع تمديد الجواز وانك عجل لارتباطات في الخارج ، لا بأس والموضوع بسيط احتاج هوية الأحوال المدنية وشهادة الجنسية وبطاقة السكن واستمارة الحصة التموينية !

قال عدنان :- هل تعتقد ان الرجل سيحمل معه كل مستنداته ويتمكن من السير في الشوارع ، لقد شرحت لك كل شيء؟

- ولكن هذه المستندات يجب ادراج تفاصيلها في استمارة الطلب.

تذكرت ان من عادتي ان اضع كل المعلومات الخاصة بي والعائلة على جهاز الكومبيوتر المحمول

- هل ينفع ان اعطيك ارقام وتواريخ هذه المستندات؟

- لابأس ولكن على شرط ان تكون صحيحة مع ملاحظة ان المبلغ سيكون ورقتين !

بعد مناقشة مملة بينه وبين عدنان اتفقنا ان يكون المبلغ ورقة ونصف

قال أبو ذكرى : الجواز سيكون جاهزا الساعة الخامسة مساء اليوم ولقاؤنا في بيتك

قال عدنان : لدي عمل مهم في الثانية عشر وقد يمتد حتى الثالثة ، اين تفضل ان نلتقي ؟!
قلت : لماذا لا يكون موعدنا غدا؟

قال : لا ، لأننا سنتناول الغداء سوية ثم ان لدي حديثا طويلا معك قد يحقق فوائد مشتركة

قلت : حسنا ، ولكن اين ؟ بغداد لم تعد كما كنت اعرفها !

قال: في ساحة النصر ، هناك مقهى على الشارع

- ولكن اي مقهى فالذي اعرفه هناك عددا من المقاهي

- مقهى ابو علي

- اتفقنا.

- ولكن اين تريد الذهاب الآن ؟

- سأقضي الوقت في شارع المتنبي

: لم تتغير ، كنت تأتي مقهى حسن عجمي وتحت ابطك مجموعة من الكتب ، وكنت اود ان اسألك هل تقرأ كل هذا الكلام ؟

كنت أريد أن اقول له أن القراءة هي المفتاح لفهم العالم ولكني آثرت الصمت.

- سألقاك في المقهى ، ادعو ان لا تفاجئنا مفخخة حين يحلو العبث والشارع خال من سيارات الهمر !

شارع الرشيد يضج بالبضائع من مختلف الاصناف وعلى نحو ينم عن فوضى كبيرة فقد افترش الباعة ارصفة الشارع وتوقفت عربات تحمل اصنافا من الخضروات والفاكهة على الجانبين الى جانب الأرصفة واصبح من المتعذر مرور السيارات ، تذّكر اول يوم قدم فيه الى بغداد وتوقف ليستأجر سيارة ، كانت سيارة الأجرة شيفرولية نظيفة ، شرح له السائق بأدب السبب في ان الأجرة مرتفعة نسبيا وقال ان سيارات الأجرة التي تستخدم الشارع يجب ان تستحصل على رخصة من امانة بغداد ويشترط ان لا تكون قد قضت في الخدمة اكثر من خمس سنوات ، العربات التي تجرها الحمير تتوقف اليوم

لتفريغ بضائعها فيما تتوزع فضلات الحيوانات والخضروات التالفة في كل مكان، المنظر برمته يكشف عن نزوع فظ وبدائي لحياة لا تعترف بالانضباط وتنحو الى استعادة ماض ربما مرت به بغداد اواخر العهد العثماني او انه تمرين لحياة قادمة لا تعرف من هو حمورابي.

قبل منعطف شارع المتنبي كانت مجموعة من المارة تتوقف لتشهد شجارا بين بائع ادوية توحي اشارات لغته المنتقاة عبر سلسلة تجارب عملية عن خبرته في عالم اكثر فوضى واشد ظلامية من ليل بغداد ، ورجل تجاوز الستين شعر رأسه الكث المتدلي على صدغيه يوحي بانه على نحو ما على علاقة بالفن وبريق عينيه القلقتين يؤكد هذا الانطباع ، كان نحيلا داكن السمرة يحرك يدية الطويلتين على نحو مسرحي ويبدو كمن اسقط في يده وانه لم يحسن تقدير خصمه

-لا تعرف ماهذه الحبوب ؟ وجهك يكشف انك ادمنت عليها ، اتحداك ان توافق على سؤال زوجتك ! لابد انها لم تستطع الانتظار اكثر فدفعتك الى البحث عنها ولكنك تتغابى لتبدو بريئا التغابي فن لم تمارسه من قبل فلماذا تضيع وقتي.

- ولكن ... انا فعلا لا اعرف ماهي هذه الحبوب .. !

كان يدافع عن نفسه بطريقة تدعو للرثاء.

قام البائع بحركة ساخرة : علينا ... نحن الذين ذوبنا الثلج بايدينا !!... اذا لم تغرب عن وجهي فورا فسأجعلك فرجة لأمة محمد !

شارع المتنبي ما يزال يرزح تحت آثار الأنفجار الذي دمر العديد من المباني التي كانت تضم مطابع ومكاتب تجارية ومئات من محلات بيع الكتب ... لقد كان الأنتقام رهيبا ومدمرا يتناسب وحجم المخاطر المرعبة للقراءة .. كان الذين استهدفوا الشارع يدركون مقولة فولتير، ان تلك الكتب تشتت الجهل ، هذا الحارس الأمين لكل المضامين التي ينشروها .. احرقت الكتب في اثينا وبعدها ببضع مئات من السنين احرقت كتب الأسكندرية و القيت كتب بغداد في دجلة ...

الباعة يحملون اصرارا على مواصلة عرض المعرفة .. على الرصيف

وبامتداد الشارع مئات الكتب معروضة فيما يتصفح الراغبون بالشراء وعابرو السبيل صفحات يقلبونها بسرعة ربما ليتأكدوا من ان الكتاب لايزال يكشف اسرارا تتواطئ مع رغبات واحلام قد تمنحهم ساعات من الصفاء وهم يحاورون الحدث او الشخصية .. هذا الحوار الجميل هو الذي سيجعل حياتهم ايسر الى حد ما.

فتاة في العشرينيات كانت غضة كنبتة برية يعلوها غبار صحراوي وعلى وجهها خجل انثوي برىء تتصفح مجلدا لم اتبين عنوانه ، في داخلي تحرك فضول الشرقي الملح والعجول ، انتظرت ان تسأل عن السعر قال البائع ذو الرأس المستديرة والتي غادرها الشعر منذ وقت طويل
- ثمانية آلاف
نظرت الى البائع ثم الى الكتاب بشيء من الأسف واعادته بعناية الى الأرض.
قال البائع : كم تدفعين؟
قالت : اربعة آلاف وهي كل ما معي !

كانت تريد ان تقطع الحوار الممل الذي قد يأتي فالبائع لا زبائن لديه وربما سيحاول الدخول في بازار لا ترغب فيه.

مط شفته السفلى واصدر صوتا يعني لا، كان يفتقر الى الشعور بالذوق في التعامل مع الجمهور، تابع التطلع في وجوه الواقفين امامه بعجرفة مقيتة ، تذكرت البائعة الجميلة في محل بيع الكتب بقريتنا التي تغفو باسترخاء عند السفح المتصل بالطرف الجنوبي لمدينة (فينا)، كانت ترسم على وجهها كله ابتسامة ودودة وتتحدث بصوت ناعم اقرب الى الهمس ، كنت اطالع عناوين الكتب على الرف حينما سمعت فتاة عابرة تحيي الباعة : هاي راشيل ! ادركت انها يهودية ، وحين كانت تحاول اقناعي بشراء رباعية توماس مان (يوسف واخوته) قلت لها انت عبرية ؟ ردت باقتضاب: نعم ، فيما استمرت ابتسامتها التي ران عليها تساؤل (ثم ماذا ؟)
قلت: اريد نسخة من الرواية رغم اني اعتقد انها نص يسعى لأعادة تفسير التاريخ
قالت :على الأقل يظل نصا عقلانيا !

كنت ادفع الحساب بواسطة بطاقة الائتمان .

قالت: سيد فالح انت احد زبائننا الدائمين رغم ان زياراتك متباعدة ، هل تقبل دعوتي لحضور احتفال اخي الصغير بعيد المعرفة .

قلت: هل هو عيد ديني ؟

قالت نعم .. نكتب بضع عبارات من التوراة على لوح من رقائق الخبز ليأكلها الصغير ، على اية حال فان الأسم الديني للعيد هو عيد (الشافوت) كما ارجو ان لا تستغرب دعوتي لك، انت صديق ابي!

قلت: باستغراب ابوك !
قالت : نعم فهو زميلك في المجلس الأستشاري للبلدية.

تداعى الى ذهني اسم روفائيل أزوري ... كيف لم انتبه الى ان الأسم يهودي!..
ولكن ماذا يعني هذا في النمسا، كان يجلس باستمرار الى جانبي تلتمع صلعته الكليّة على رأسه تحت ضوء المصباح المعلق الى السقف ويحرك نظارته ذات الاطار الذهبي وهو يتحدث بلغة المانية سلسة وكأنه يلقي قصيدة رصينة بجرس متناغم هادئ، واحيانا يلقي تعليقات مرحة لاتنسجم وشكله الجاد بحاجبيه الأبيضين الغليظين ، مرة دعاني الى فنجان قهوة في الكافتيريا المجاورة لمبنى البلدية ، اتذكر الآن انه كان حريصا ان يترك لي الكلام لأتحدث عن العراق.
كان يحمل باستمرار كتابا يطالعه في صالة البلدية ونحن ننتظر موعد الأجتماع الأسبوعي .
قلت له : القراءة هواية جميلة.
رد بالأيجاب وحرك حاجبيه وبعد لحظة صمت قال : هل تعرف ايتاليو كالفينو ؟

قلت : قرأت له (مسافر في ليل شتوي) وكان ذلك في الثمانينات ، وانا لا اتذكر الكثير منه الآن.
قال: هل قرأته بالألمانية ؟

قلت : لا ، بالأنكليزية فمعرفتي بالألمانية كانت في حينها محدودة.

قال : كافيلينو احد ابرز الروائيين الأيطاليين المعادين للفاشية ولديه مجموعة

من الروايات والقصص القصيرة كما انه احد مقاتلي الحزب الشيوعي الايطالي ضد حكومة موسيليني ولأني انهيت اليوم قراءة هذه الرواية فيمكنك ان تقرأها انها احدى روايات ما بعد انهيار الفاشية.
كانت الرواية تحمل عنوانا بوليسيا (درب اعشاش العنكبوت).

قال روفائيل وهو يودعني : في القراءة قوة كامنة ، وكما يقول صاحبنا كالفينو (القراءة تعني الأقتراب من شيء هو قيد الصيرورة) هذا من روايته التي قرأتها انت في الثمانينات!

تراجعت الفتاة ، شعرت ان حالة فريدة امامي ، كان الكتاب يتضمن بعض روايات دستوفيسكي ، قلت للبائع سأدفع الفرق فقط نادها ، لم يستوعب العرض الذي تقدمت به ، تطلع نحوي باستغراب حذر ، قلت: نادها قبل ان تبتعد !

شعرت بحزن وكأني اشارك في ذنب قد لا تتاح لي الفرصة للتكفير عنه ان لم تحصل الفتاة على الكتاب ، ففي ظل كل هذه المآسي التي يتعرض لها هؤلاء الناس ما زالت تسكن بعضهم روح الأجداد الذين كتبوا اول الحروف ليقرأها العالم ... انتابتني مشاعر امل، ربما ستقدم هذه الفتاة لي تفاؤلا بان الكابوس في نهايته وان كل ما علينا ان نفعله هو ان نستيقظ .

دفعت الفتاة الآلاف الأربعة واحتضنت الكتاب بحميمية وعلى شفتيها ظل ابتسامة بانها انتصرت ، الفتاة والكتاب الذي تحمله وهي تبتعد وشعور بالسعادة كهالة تستدير حول قمر صيفي ، كانا يشكلان رمزا على درجة لا يمكن تصورها من الانسجام والتوحد.

في كل الأسواق أو الشوارع التي تبيع الكتب كنت الحظ ذات الأنطباع بالجدية على وجوه المرتادين وهم يتنتقلون بنظراتهم على صفوف الكتب مستطلعين عناوينها وكأنهم يحرصون على استيعاب اكبر مجموعة من هذه العناوين ، في شارع المتنبي المحترق والمسودة جدرانه كانت عيونهم تمسح الرصيف الذي صفت الكتب فيه على قطعة نايلون او قطعة خشبية، وهم يعبّرون عن ذات الأهتمام الذي كنت اراه في الأزبكية او في مكتبات فيّينا الفخمة او الشارع الضيق الذي اكتشفته في مدينة بومبي وانا اتجول دونما هدف محدد.

اشتريت بضعة كتب وخرجت الى (باب المعظم) لأستقل سيارة اجرة الى ساحة النصر
قال السائق: لقد عملت الأحداث على تغيير الجميع
لم اكن قد سألته، وربما كان يتابع حديثا مع نفسه اذ انه لم يلتفت نحوي ولم يبد عليه انه مهتم بردّي ، عدّل من وضع المرآة التي امامه وقال:
- من الصعب الدخول الى ساحة النصر من جهة الباب الشرقي لأن مدخل شارع السعدون تعترضة نقطة تفتيش امريكية ، الكلاب هي التي يثق بها الأمريكان !
قلت له: يمكن ان تسلك اي طريق ملائم فلست عجلا
قال: هذا افضل ففي سجن الأحزان يجب ان تكون تصرفاتك محكومة بالصبر !

لم افهم تماما ما قاله ولهذا فقد بدت ملامحي تحمل حيرة يداخلها شك بان الرجل يحاول استدراجي ! رأى ذلك في المرآة فضحك ، انت تستغرب لغتي ! كنت شاعرا صغيرا في وقت يموت فيه الشعراء الكبار على ارصفة الشوارع ولهذا استبدلت الشعر بقيادة السيارة ، انت ترى قيادة الناس اصعب، سيما ونحن جميعا نتعرض يوميا لتجارب نفسية ... تطلع في المرآة ليتأكد اني اتابعه وقال :- بالتأكيد هي تجارب متوترة ، انا الذي اخاف من ذبح دجاجة رغم اني احب تناول الدجاج يوميا في مطعم وبار الشرق، الا اني اضطررت الى جمع الأشلاء التي كانت متناثرة بعد انفجار كبير في ساحة الطيران .. جمعت ايد وبقايا جماجم ادمغتها كانت حارة ، وضعت الجميع في كيس وسلمتها للشرطة التي جاءت متأخرة كالعادة.. وانا اقوم بعملية الجمع تلك لم افكر بالدم والقطع البشرية ولكني حين جلست لتناول قطعة دجاج لم تكن مشوية جيدا وكان على جوانب العظم بقايا دماء استعدت المنظر السابق ، افرغت قنينة البيرة من جوفي وتركت المطعم.

لم ارد ، كان يدخل منطقة تتزاحم فيها محلات بيع الأثاث المصنوع من الألمنيوم ، الى الأمام بدا انه من الصعب التحرك بالسيارة فقد سُدّ الشارع بعشرات العربات المحملة ببضائع متنوعة وبدأت ضجة غريبة تتصاعد جراء تعامل المشترين ومناداة الباعة ، الى الأمام كانت بضع سيارات عسكرية تخترق الشارع مخالفة السير وهي تعبر الحديقة الوسطية محطمة الرصيف وناثرة شتلات الورد والبساط الأخضر الطري.

المتبضعون والمتسكعون كلهم غرباء عن بعضهم تجمعهم المصادفة تماما كغرباء الدائرة السابعة من جحيم دانتي، حيث كانوا ينظرون بعضهم الى بعض عندما ينقشع ضوء النهار ويحل المساء باطلالة قمر جديد في السماء ... فرق واحد هو الزمن ، الزمن العراقي في سجن الأحزان ، انهم يتجمعون ليتفرج بعضهم على بعض حينما تبدأ الساعة تؤشر اقترابها من العاشرة صباحا ذلك لأن المفخخات تتوقف عادة بعد هذا الوقت !

عند واجهة المقهى جلست مجموعة من النسوة على الأرض الرطبة ، كن يلبسن عباءات سوداء وعلى الرأس وحول استدارة الوجوه المتعبة كانت طرحات سوداء ايضا ، كن صامتات على نحو يعبر عن فجيعة عميقة تشد عضلات الوجوه وفكرت ان هذه الوجوه هي زنزانات في سجن الحزن الذي يمنع فيه الكلام فيما يدور حوار هادئ تتبادله العيون التي يسكنها فزع يطفو على النظرات العميقة.

يقول (ريلكة) ان الأحزان التي نحملها وتطغي على اصواتنا بين الناس هي وحدها الأحزان الخطيرة، ولكن الحزن هنا يظل اشد قسوة وهو يسكن في هذه الزنزانات الحية يثرثر صمته على الرصيف الرطب ، النسوة المتجمعات هنا كائنات متفردة ولا يمكن ان يشكلن مع العالم شكلا يحمل اية ملامح انسجام او تكامل .

قال النادل : لقد برد شايك ياحاج ، هل تفضل ان اغيره ؟
- لا فأنا افضل الشاي البارد.

لم يعلق وان بدا مستغربا بعض الشيء ، توقفت سيارة مظللة وترجل منها عدنان كان كمن يحاول ان يعطي حركاته معنى يتوخى الا تخطئه العين :انه شخص على قدر من الأهمية!

بدا لي تصرفه مقيتا ولا يحمل اية مشاعر انسانية تتماشى ومنظر النساء اللواتي ما يزال الصمت الأسير في زنزانات الحزن يثرثر في عيونهن التي تتجمد نظراتها على الأقدام التي تخطو ببطء على الأسفلت المرشوش بماء المطر الليلي.

- ارجو ألآ أكون قد تأخرت عليك

شعرت بانه يريد ان يقول تصور يا صديقي اني تحملت الكثير من اجل موعدك !

- لا

- حسنا ، لنذهب الى البيت ، لقد طلبت من زوجتي ان تحضر لك وجبة (دولمة) لأني اتذكر ولعك بهذا الطعام

كنت اريد ان اعتذر واعبر عن اسفي لأنه كلف زوجته بهذه المهمة حينما سمعت صوتا يعلن بفرحة مهللة: ابو رؤى !!..أيها الصديق العزيز أية ريح طيبة حملتك الى بغداد ...يجب ان اصدق اني محظوظ جدا

تقدم رجل يضع على رأسه قلنسوة ويغطي نصف وجهه الأسفل ذقن رصاصي مشذب بعناية ويستعين بعكاز في مشيته البطيئة ، رنة الصوت المميزة بنطق الحروف الممطوطة بتفخيم تهريجي نشطت ذاكرتي ، كان عبد السميع كاتب القصة القصيرة على صفحات مجلة الف باء ، كان دائما شديد الصخب يتحدث بصوت مرتفع ويلوح بيديه

- اهلا ابا جودي

- بالأحضان !

استند الى كتفي وترك العكاز على (التخت)

- أين انت كل هذه المدة يارجل ؟!

- الموضوع يطول شرحة ، اعرفك على صديقي عدنان

- اهلا

قالها ببرود اشعرني انهما على معرفة سابقة

- اين تذهبان ؟ لابد من ان نتحدث قليلا لأ تعرف على اخبارك.

رجوت عدنان ان نعاود جلوسنا فقبل على مضض.

كنت ايضا مشتاقا لأن اسمع اخبار اخرى فالمجال الذي يعمل به عبد السميع خصبا بالأشاعات والتوقعات المبنية على متابعة الأسرار والفضائح سيما ان زوجته كانت تعمل ايضا بمجال الأعلام واحدى كاتبات الأعمدة في صحيفة تديرها الدولة بطريقة غير مباشرة.

- اخوك الآن نصف عاطل بعد بطالة كاملة استمرت اكثر من عامين ، أم جودي تشتغل مع قناة فضائية اجنبية وهذا ما يوفر لنا شيئا من التعويض، وانت ؟ قيل انك تشغل مركزا مرموقا في الحكومة النمسا وية ؟
كان يتكلم دون ان ينتظر اجابة او تعليقا
- ها .... هل اضايقك ؟
- لا
- حسنا حدثني

- ليس لدي الكثير

-هل جئت مع العائلة ؟

: زوجتي توفيت العام الماضي وابنتي الوحيدة تزوجت من مهندس في النمسا ولديها ولد لم يتجاوز الثلاث سنين ونصف

- وانت ؟

- انا عضو في المجلس الأستشاري لبلدية القرية التي اسكنها واعمل ايضا مع مؤسسة تعليمية حيث القي دروسا بتعليم اللغة العربية لبعض النمساويين الراغبين بالسفر الى البلاد العربية وهذ العمل مجاني كما اني اكتب احيانا بعض النصوص لجريدة في فيينا واحيانا اقوم بترجمة بعض الأعمال العربية.

- رائع ، انت اذن قريب من الساحة الأدبية! امامنا فرصة جميلة لحضور مهرجان توزيع جوائز الأبداع الأدبي في القصة والرواية بعد غد ، اعطني عنوانك وسأكون عندك الساعة العاشرة صباحا لنذهب سوية ، ليس امامك الا الموافقة لأن جواد احد الفائزين ووجودك سيعني لنا الكثير .

قلت له : ليس من السهل التثبت من عنواني فانا الآن في بيتي ولكن من المستحيل البقاء فيه ليلة اخرى واحاول ان ابحث عن فندق ملائم وكما تعلم عهدي بفنادق بغداد منذ ايام الجامعة.

قال عدنان :لا تشغل بالك فانا اعرف فندقا امينا ، الفنادق الكبير مشغولة للوفود وللمشاركين في المؤتمرات وما اكثرها هذه الأيام !
قال عبد السميع : وضع الفنادق خطر (فالعلاسة) يتصيدون رزقهم فيها.
قلت : يبدو اني سأتعلم الكثير من المصطلحات الحديثة
قال عدنان : هؤلاء يحددون الهدف لعصابات الخطف وهم واحد من مظاهر جديدة فغيره الصكاكة والعتاكة ولا تنسى البطة وستسمع يوميا الوطنية وهو مصطلح يتداوله الجميع كل ساعتين عندما تهلّ الكهرباء ، على اية حال الفندق ليس بعيدا من هنا ، انه فندق الأماسي ، وسنذهب اولا لتجمع حاجياتك .

قا ل عبد السميع : اعتقد ان صاحبك قد شبع ضجرا من تأخيري اياكم ، الى ما بعد غد في فندق الأماسي!
كانت الساعة الثالثة ظهرا هي ساعة الذروة في ساحة النصر حيث ينحدر بعدها مؤشر الاكتظاظ امام عربات السلع وتبدأ اصوات الباعة بفقدان حماسها الضاج بالحيوية وتلوينات تنغيم الدعوة للشراء بل ان بعض الباعة يبدأ بتجميع بضائعه تمهيدا للمغادرة.

قال عدنان : كم هو مضجر ! لقد كان انتهازيا صغيرا وحتى انه لم يكبر!

اوقف سيارة اجرة ، جلس هو في المقدمة مع السائق وترك لي المقعد الخلفي ، لم نتبادل الحديث ، تعلق نظري ببعض المربعات المزروعة حديثا وبالأرصفة التي دهنت بالأبيض والأسود وفي المناطق التي تتعرض لأشعة الشمس المنسحبة بتوان خلف البنايات تتراقص نهايات الشعاع الفاتر في ثنايا الصباغ ربما ليقيم الحجة على بعض العناصر التي ما تزال تصر على ان حملة اعمار بغداد مجرد مزحة يخفف بها مجلس محافظة بغداد من صرامة العمل المجهد الذي يؤديه من اجل خدمة المواطن !

-قلت اية تحولات يجب ان تكون الآن !

كنت اعلق على حديث عدنان ونحن نجلس على اريكة وثيرة في (قاعة)

الضيوف الفارهة ، كانت الغرفة الكبيرة منسقة بكل شيء ، الوان الأثاث ، الستائر ، الفرش الأرضي ، اللوحات المعلقة والتي كانت صورا عن لوحات مشهورة ولكن طباعتها كانت متناسقة وتطل من اطار خشبي جميل ، مرتين دخلت بيت عدنان قبل ان اغادر الى النمسا ولكن تغييرا كبيرا يحدث الآن ويمكن ان اقول انه مدهش !

لم اسمع في البيت اصوات ابنائه ، كان عنده ثلاث بنات وولدين ، لم اسأله ، كنت مترددا في الدخول بخصوصياته
ربما خمّن ما افكر به ، قال بانه تزوج حديثا ، لم توافق امرأته الأولى ، أخذت الأولاد وخرجت ولكنه لم يتخل عنهم فقد اشترى لها بيتا في حي العامل جنب اخيها وخصص لها وللأولاد راتبا شهريا .
قلت مازحا : ولكن ماذا عن مكافأة نهاية الخدمة .
رد: البيت والأثاث الجديد !

- امرأتي الجديدة غيرت كل معالم حياتي ، تصر ان تعطي البيت طابعا عصريا كما تقول
- ولكن هل كنت تعرفها سابقا ؟

قال : تقصد هل كنت احبها ؟ شيء ابعد قليلا من المعرفة ! نعم ، سلافة كانت صبية مرحة وفاتنة ، كنت اراها وانا ارافق ابي لنهتم بأمور حديقة منزلهم ، كنت في الصف المنتهي في ثانوية الكرخ ، وبالطبع كانت حلما جميلا ، ضحكتها تغريد جذل وهي تداعب اخيها الصغير، كنت اعرف حدودي تماما وفكرت ان حبها لن يمنحني غير الجنون ، اخذتني الحياة ولكني لم انسها كانت تسكن في اعماق ذاكرتي رغم اني لم احاول ان استدعيها يوما فالذاكرة قد تكون مخادعة ايضا ، بعد سقوط النظام تغيرت امور كثيرة اذ ان علاقتي القلقة وغير المنتظمة والتي كانت تتستر بوشائج قربى مع هيثم الذي كان في المعارضة والذي عرفت لاحقا انه احد عناصر القيادة في الحزب دفعتني الى العمل التجاري ، العمل الذي لم يكن في الواجهة وانما يجري بهدوء وتواطؤ بين مجموعة تدرك انها تقوم بعمل غير مشروع ولكنها تدرك وعلى نحو اكثر وضوحا انها امام فرصة نادرة لتعويض كل سنوات الحرمان ، وهكذا اصبحت رجل اعمال ، وعرفت يومها ان عمليات التجارة لا يمكن ان تدار الا بمهارات لصوص محترفين ، هل انا مقتنع بما اعمله ؟ نعم !

- انت تتحدث ببساطة عن جملة من المتناقضات !

- اعرف ذلك وهنا المهارة ، ان تخطو عبر حقل الألغام لتصل

- الى اين ؟

- الى حيث اريد ! على المرء ان يكون عمليا وان يفهم الحياة كما هي لا كما يتخيل ان تكون ربما سيحصل ذلك في المستقبل ، المستقبل الذي كنا نحلم به

- ولكن المستقبل يبدأ الان ، التحولات يجب ان تبدأ هذه اللحظة والا سيظل المستقبل مجرد حلم وسنظل في الحاضر

- ربما !

بدأ نقر خفيف على الباب ثم دخلت امرأة في اواخر الثلاثينات عضلات وجهها البيضاء المتناسقة والمشدودة تعطي انطباعا بالجدية والى حد ما بصرامة تكشف عن معاناة عميقة ولكنها لا تخفي مسحة جمال مترفع ، في عينيها الواسعتين والداكنتي السواد وحشة تطبع نظراتها الهادئة والمستقرة رغم ذلك بعذوبة رقيقة فيما تعبر ملامحها ظلال انثوية هادئة

نهض عدنان باحترام وهو يقول ، زوجتي ، سلافة.

مدت يدها وهي تبتسم وقالت بصوت منخفض : اهلا ، لقد حدثني عدنان عنك ، يؤسفني اني تأخرت فقد كنت مشغولة بإعداد المائدة ، تفضلا.

الفصل الثالث

قال عدنان : اجدني كمن يتحدث بصوت عال ليستمع الى نفسه او ليستعرض افكاره وحياته او ربما اتحدث لأني لا بد لي من ان اشارك احدا بأسراري .. فقدت كل اصدقائي ، الجميع غادروا اما الى بلاد اخرى او الى سجن مجهول، او تمت تصفيتهم، ولهذا اصبح قلبي مثقلا بأعباء لا يمكن ان احكيها حتى لنفسي وانت تعرف ان من المستحيل العثور على صديق جديد يمكن ان يكتسب ثقتك لتتحدث معه بصراحة، وهكذا وجدتني وحيدا ولكني فجأة وبعد سقوط النظام اكتشفت اني محظوظ جدا فقد اتيح لي ان احصل على جائزتين كبيرتين في آن واحد وكلاهما كانت الجائزة الأولى في اليانصيب الوطني .. المال وسلافة .. خلال عامين فقط تجاوزت الأرقام كل احلامي .. اموال سائلة وعقارات .. كانت البداية صفقة سيارات مصفحة ، كنت اصر على استلام العمولة نقدا فقد كنت جديدا في الكار ثم تعلمت فتح الحسابات السرية ، سافرت الى سويسرا ، واشتريت عقارات في عمان وفي دمشق واخيرا في القاهرة ، كنت اتعامل مع شركة اردنية فقد تجنبت العمل مع العراقيين في عمان وقد تعلمت انك على قدر حاجة الاخرين اليك تكون موضع حفاوة ربما هذا في كل مكان ولكنه في الأردن سلوك يتحقق بامتياز .

تذكرت عام 1984 حينما دعت السفارة العراقية الأردنيين في عمان الى حفل غنائي بهدف جمع التبرعات للحرب ، كانت المغنية المتصابية تصبغ شعرها بلون فاقع لتبدو شقراء وتضع الكثير من الكحل في عينيها وعلى الجفنين طلاء اصفر.

حين بدأت حملة التبرعات بعد اغنية (صقر البيده) ارتفعت الأيدي تعلن الرغبة بالإعلان عن التبرع ... كان المتبرعون يقدمون شيكات بأرقام كبيرة وكان تصفيق حاد يتبع كل اعلان كما تبرع البعض بقطع اراض وعقارات متنوعة ، واخيرا نهض رجل ضئيل الحجم اسمر البشرة على عينيه نظارات سميكة وطلب من الجميع الإنصات لأنه يريد ان يتبرع:

- انا لا املك الكثير ولكني املك ايمانا لا حدود له بالرئيس القائد وبالنصر اني اتبرع بكامل الكميات اللازمة لصبغ البوابة الشرقية باللون الأبيض من جهة العراق وباللون الأسود من جهة ايران وكذلك بإجور العمال الذين سيقومون بعملية الصبغ.

في البدء سرت همهمات مستغربة ثم تعالى ضحك ساخر ولكن عريف الحفل وقف يصفق بحماس فتبعه الاخرون.

في اليوم التالي تبين ان الشيكات بدون رصيد وان الذين تبرعوا بالعقارات كانت عقاراتهم بأسماء زوجاتهم ، قال مدير مكتب التنسيق العراقي في العقبة انه سيتصل بالشخص الذي تبرع بصبغ البوابة الشرقية فقد يدفع بدلا من ذلك ايجار القاعة التي جرى فيها الاحتفال، اما المغنية فقد اضطرت الى الغناء ثلاثة ليال في مطعم الفندق لتسدد كلفة مبيتها لديهم.

كنا نشرب الشاي في الصالة الأنيقة فيما كانت سلافة ترفع الأطباق ، كان يرمقها بعيني عاشق مؤمن بمعبودته الى حد الوله المطلق فيما كانت نظراتها تهوم بصمت هامس تخفيه متاهات جرح سري.. انسانة من كوكب آخر تتحرك ، رغم البطئ المقصود بحركتها ، بخفة حالمة.

تابع عدنان : لم اكن احلم بان القدر سيمنحني كل ما تمنيته وذاكرتي التي كانت مغلقة ككرة جليد تتعرض لانخفاض كبير في درجات الحرارة لم يعد فيها فراغ ما ولكن كرة الجليد تتحول الى سيل حين تذوب ولا يمكن التنبؤ بأية اتجاهات ستندفع المياه ! كنت عند احد الأصدقاء في عمان حينما دخلت سكرتيرته لتعلمه بان السيدة العراقية قد حضرت فهل تسلمها الأمانة؟

صمت الرجل لحظة ثم قال لها:

- نعم ، ولكن ارغب برؤيتها لأني سأغادر بإجازة طويلة مع العائلة واريد ان اكلمها.

دخلت امرأة شاحبة تأسرها نوبة حياء تتبدى في الصمت الأخرس الذي يشد على ملامحها كان كل شيء في حركتها، وهي تتقدم، ساكنا ، رغم ان نظراتها كانت ثابتة وخالية من اي ايقاع انثوي الا انها كانت تكشف عن ترفع مستكين وكأنها تعاني قهرا يثقل عليها ، داريت نظراتي وتطلعت الى صورة فتوغرافية لصبي في العاشرة كانت على المنضدة ، كان الصبي يبتسم وتطل من عينيه شقاوة عذبة ، فجأة ذابت كرة الجليد وتدافع السيل بكل الاتجاهات ووقفت امامي سلافة بكل مرح الصبا وعبث الدلال كنت على وشك ان اقفز من

مقعدي ان اصرخ من الفرحة ولكن نظراتها الصلبة والثابتة الزمتني مكاني... كنت منذهلا ..كمن يصحو على ضوء باهر يتغلغل في ثنايا الظلال، فتتداخل الرؤى ويعتم كل شيء ويسيطر عليه الإحساس بأنه متلبس بالضوء الذي اغرقه فضاع منه الطريق كعلامة مفقودة في مسابقة اجتياز الموت على حافة السكين ، الشمس امامي وكأنها تأخذني الى غبش تدخله عتمة تطوقني ، ليس من السهل ان اشرح ما كنت عليه !

قلت: ليس هذا ضروريا ، هل يخفف ذلك عنك ؟

لم ينتبه الى صدى الضجر في اعتراضي ، ادركت انه كان يحتاج الى ان يتحدث ... ان يكشف اسراره التي ظل يعاني من وطأتها وهو الان كطفل يستعجل فرحته

تابع : كانت نظراتها الضعيفة تضج بشكوى قدرية ولكنها لم تكن منكسرة وهي تنحني لعاصفة عابرة وهي مصرة ان لا تقع ، تصور اني لم استوعب كل ما قاله صديقي فلم تكن الكلمات لتصل الى مسمعي وانا البعيد عنهم في خضم عاصفة الذكرى ورجع الأيام ،في المساء ونحن في مطعم دافنشي في منطقة الشميساني الأنيقة كنت اتحرش بصديقي ليحكي لي قال بانه يعرف اباها فقد كانت تربطهما علاقات تجارية اثناء الحصار على العراق ولكنه لم يتعرف على العائلة ، يعرف فقط ان للرجل ابنة وهي طالبة جامعية ومخطوبة الى ابن خالتها، كما ان له ولد استشهد على الطريق الى البصرة حينما تراجع الجيش العراقي من الكويت وقد كان قائد طائرة مروحية.

البنت تزوجت وكانت تعاني من ابن خالتها الذي كان مهووسا بالقمار فاهمل البيت واضاع كل ما كان يملك، واضطر الأب الى تطليقها منه لقاء دفع تعويض مناسب امكن الزوج من المغادرة الى جهة ما في اوربا، وانقطعت اخباره وفي عام 2003 اثناء القصف الجوي الأمريكي تعرض بيتهم الى قذيفة مباشرة دمرته تماما وقتل في اثناء ذلك الأب وكانت سلافة وامها في زيارة لأحدى قريباتهم في منطقة المأمون القريبة.

قال بانه عرف كل هذه التفاصيل لاحقا فقد قررت سلافة وأمها الانتقال الى عمان هربا من الفوضى التي تعم العراق ، باعا الهيكل المتبقي من البيت ومزرعة في شمال بغداد ومع المجوهرات التي لدى الأم فكّرا انهما سيجتازان

الأزمة الى ان يعود الأمان الى بغداد ، السائق الأردني الذي استأجراه كان يستمع الى حديث الأم بالتفاصيل عن حياتهما وتعرضت الأم الى عمل زوجها مع الأردن، وبالطبع الى تفاصيل عديدة، عرف منها اني انا الذي كنت على علاقة مع الأب، فقد كان السائق يعمل معي وجئنا سوية اكثر من مرة الى بغداد وكنا احيانا نصحب الأب من منزله الى المكتب ، وهكذا اطلعني على القصة، فحاولت مساعدتهم بان تشتغل سلافة في مكتبي ولكنها كانت تعاني من نوبات شرود ذهني ولم تستطع التركيز ولهذا عرضت عليها ان تبقى في البيت وان ادفع راتبها الشهري ، لم توافق في البداية ولكن سرعة النقص الذي يزحف على مدخراتهما دفعت بالأم الى اقناعها.

التفت نحوي عدنان الذي كان يتحدث بشيء من الاندفاع : بقية القصة نهاياتها امامك الآن ولكن الا تعتقد اني ارتكب بعض الحماقات بإجبارك على

الإنصات ؟

- هل تعتقد انت بذلك ؟

رد بارتياح : لا ، اشعر بأني قد تخففت من وطأة اسراري! ولكن لا بد ان تعرف اني اكتشفت بنفسي قدرات كبيرة على الأقناع ربما كانت مختفية ولكن العمل في السوق دفعها الى السطح ! كما اكتشفت اني املك كل مواصفات العاشق بالفطرة.

عاد النقر الخفيف على الباب ثم دخلت سلافة ، لا ادري لم استوقفتني شفتيها المسترخيتين يسكنهما صمت عميق ولكن تطفو فوقهما مسحة صلابة.

قالت : آسفة لأني اعاود مقاطعتكما ، ولكن هل ترغبان بالقهوة؟

تحرجت ان اطلبها ولكن عدنان اسعفني : يا سيدتي ابو رؤى يشرب القهوة بمزاج رائق.

ابتسمت وهي تهم بالرجوع.

قال عدنان : اوصتها امها وهي تحتضر بان تتزوجني ، بعد الأيام السبعة كنا نقف امام القاضي مع الشهود ، جرى كل شيء بهدوء تام وقضينا اسبوعا في العقبة وابتدأت حياة جديدة ، امور عديدة نختلف فيها وحولها ولكني قررت ان اكون تلميذا مواظبا ومطيعا فقد وجدت ان ما تعرضه افضل مما هو جار،

ولهذا نحن اكثر تنظيما ودقة في تنظيم جوانب حياتنا المختلفة ولا تتولى هي امور البيت فحسب، وانما تفاصيل الصفقات التجارية تنظيم مواعيدي والأشراف على حساباتي وهي التي اصرت ان امنح زوجتي والأولاد راتبا يفي بكل متطلباتهم وقامت بزيارتهم، واشرفت على فرش البيت الجديد وقالت لها ، يجب ان نظل اصدقاء !... لقد عملت على ان اتجنب مزالق الثروة. اني مدين لها بالكثير ولا اجد عيبا بالاعتراف العلني ! اني اشعر بالخوف وانا اتحدث عن سعادتي معها ، الإحساس بالفرح كالإحساس بالذنب يستدعي السرية ! حتى ان بعض الأنظمة تعاقب الذين يستهلكون الفرح على نحو علني ولهذا يصبح عبئا يجب التخفيف منه عن طريق المشاركة الأمينة !

دخلت سلافة بالقهوة.
قالت : لم ار عدنان ينطلق بحديثه مع معارفه كما فعل معك !.
لحظت انها لم تستعمل كلمة اصدقائه ..
قالت : كيف وجدت بغداد بعد الفراق الطويل ؟

- بغداد التي كانت تعيش في خاطري وتسكن في روحي لم اجدها ، بغداد اخرى تمدد في فضاءات مغبرة تسكن مكانها.

قال عدنان : ولكن لماذا يحصل كل هذا ؟

قالت سلافة : في كل قرار .. يظل السؤال خائنا .. اذ ليس من جواب كاف !... كان هناك قرار التغيير ورغم مشروعيته الا انه خلق لاحقا مئات الأسئلة.

قلت : كنت اعرف (هير كويت) لقد زرته مرتين في مشفاه ورغم مرضه الطويل الا انه ظل صلبا.

قال عدنان : في النمسا !

قالت سلافة متجاوزة حديث الموت عن الشاعر : انا التي رجوت عدنان ان نعود الى بغداد على الرغم من انه حصل لي على (الإقامة) في الأردن ، بغداد تظل هاجسنا ولكن سؤال عدنان يظل كالسكين التي تنغرس ببطء ، نعم لماذا ؟

قال عدنان : انا كرجل اعمال اتفهم ان يربح المقاول او المستورد اية نسبة يحلم بها واتفهم ان استطيع قضاء بعض المهام لقاء دفع بعض المال ... قد تسألني كيف ؟ حسنا الربح مشروع، قد ادفع نسبة من ارباحي لأحدهم وقد ادفع رشوة لموظف لإنجاز معاملتي، ولكن ليس على حساب النوعية وليس على حساب الغاء معاملة آخر ، المقاولة بمليون وفق المواصفات النموذجية .. قد اتفق مع المسؤول ان يجعلها بمليون ومئة الف على ان تنفذ وفق المواصفات اما ان اقبلها بمليون ويتغاضى المسؤول عن المواصفات الفنية واربح نصف مليون اتقاسمها واياه فهذه جريمة في نظري.

قالت سلافة : اية عملية هندسية مغشوشة قد تتسبب في كارثة ، سمعت ان جسرا في الجنوب قد انهار قبل ان يستكمل ، تصور ان هذا الجسر قد جرى تسليمه، واجيز للشعب ان يستخدمه ما هو حجم الكارثة ؟ الا يتصور المنفذ والمسؤول انه ربما سيجتازه ابنه وامرأته او حتى احد معارفه ! كيف سيحضر الجنازة؟ هل سيضع باقة ورد احمر على التابوت ؟!
اعرف ان ممارسات النظام السابق غيرت الكثير في البنية الاجتماعية، ولتكرار مشاهد الموت لم يعد العراقي معني بالحرص على العلاقات مع الآخرين ، تصور ان العمر اليوم يقاس بالحرب ففلانة ولدت في حرب بوش الأب، والأخرى ولدت عندما حضر بريمر والكبيرة ولدت يوم قصف ملجأ العامرية ... هذه هي عناوين التاريخ العراقي.

قال عدنان : لقد اضعنا الفرصة واهدرنا ضربة الحظ التي انهت النظام السابق وأتسأل عما اذا مازال في الامكان بناء وطن ديمقراطي ؟

مرت بذهني العديد من التساؤلات وعلق في خاطري ما قاله رجل كان يتحدث بصوت عال في سيارة اجرة كانت تلتقط زبائنها في (الباب المعظم) نحن معبؤون بالتطرف ... ليس على نطاق الفكر فقط وانما على المستويات كافة فحين فتح المجال للكسب اندفعنا بكل الشهوات لجمع المال دون اية اعتبارات اخلاقية.

قالت سلافة في نية لتغيير الحديث : كم ستبقى في بغداد ؟

قلت: بضعة ايام ثم اسافر الى كركوك لأنهي قضية عمرها اكثر من ثلاثين سنة ، توفي ابي وترك لنا الدار الكبيرة وعمارة سكنية في السوق كان يتولى

امر جمع الايجارات اخي الكبير ولكنه توفي هو الآخر ولابد من انجاز معاملات تصفية التركة وهم يحتاجون وجودي.
قال عدنان : ولكنا سنراك لأن لدينا حديثا لم ينته بعد.... سنواصله !

قلت: ان شاء الله وقد سررت فعلا بالحديث معكما وارجو لكما السعادة.

قال عدنان : سأوصلك للفندق.
في الطريق حدثني عن الحاجة الى شخص قريب وموضع ثقة يكون بمثابة المستشار للشركة وان يتولى ايضا متابعة العمل مع الشركات الأوربية والأمريكية التي يتعاملون معها.

قال : عملنا محكوم باسرار متنوعة وانا لازلت اجهل الكثير من التعاملات البنكية ومسائل النقل البحري وان وجودي معه سيخفف عنه العبء.

كنت اتابعه، ماذا سيكون الثمن للمشاركة في عمليات النهب العام !

تابع عدنان : الموضوع متروك لحين عودتك من كركوك ويمكنك ان تفكر به وانت على الطريق، لا تنشغل بالأرباح فهي بكل الأحوال اكبر مما تتوقع، ولأني اعرفك جيدا فاني استطيع ان اطمئنك بان لا اشتراطات سياسية في عملنا.

سلمني موظف الاستقبال مفتاح الغرفة ورسالة قصيرة من عبد السميع يقول فيها انه سيحضر غدا الساعة التاسعة ليصحبني الى الاحتفال بتوزيع جوائز الابداع الادبي في فندق المنصور وان علي الا اتناول الفطور في الفندق، لأنه سيدعوني الى تناول الطبق الشهي لأهل بغداد (ايام زمان).

كانت الكهرباء مقطوعة ، وهذا يعني يوما آخر لن استطيع ان استعمل فيه الحمام والغرفة الواسعة كانت اسيرة برد كأنه يتخفى من مطاردة الأحزمة الناسفة والمدفأة الكهربائية، التي كانت تتغذي من مولدة تعمل على نحو متقطع بحجة عدم توفر الوقود الكافي ، لم تفلح في تبديد البرد او حتى جعله يتدارى بزوايا الغرفة.

تمددت بخمول ، بغداد اذا تجد وقتا للاحتفال بالأدب ، ربما يخفف هذا من عمق الحزن الذي بدأ يغزوني.

قالت فتاة المطعم في صالة الفندق في الطابق الثاني وهي ترد على تعليقي على مغنية عراقية كانت تغني بحرقة فيما كان التلفاز صامتا.

- انها تغني بروح متقدة اغنية بدون كلمات !

نظرت الى الفتاة بشيء من الاستغراب .

قالت : كلنا اليوم شعراء ، جارنا الصغير في الابتدائية ويصر ان يكتب اغنية لزميلته !

الراديو الصغير الذي دسته رؤى في مناشف الحمام ، على الطاولة ، أبحر معه عبر نوافذ العالم أقف عند قصيدة يلقيها شاعر صوته مراوغ، او أتابع نظرة نقدية يعتقدها الناقد العربي جديدة وهو يستلها بحذر من معطف دريدا السميك ، رئيس الوزراء يهدد بلغة عربية سليمة وربما هو الوحيد بين الزعماء العرب الذي يحسن الصنعة ، هل نعود الى اللغة لنبحث عن خلاصنا !

الرجل الذي يقف متجهما في صالة الفندق، هو مدير المطعم ، مزررا سترته الزرقاء ليخفي انتفاخ بطنه فيما عيناه تدوران باتجاهات متوازية احيانا، يرفض ان تكلم الفتاة الزبائن او ان تبتسم لهم وهي تتحدث ، يجب ان تضع الأطباق او ان تجمعها وهي في الحالتين جّدية فالحديث يجر الى المجاملة التي تقود الى المعرفة وهكذا تنشأ العلاقات !

قالت : يقف دائما كشيطان عينه على الجنة !

قلت : ولماذا لا يذهب لممارسة عمله في الاغواء؟!

انطلقت تمسح وجهها كله ابتسامة فرحة : هل تقترح أن اذكّره بذلك ؟!

- وتذهبي الى بيتكم !

نادى المدير بصوت يتعثر بين اسنانه التي يكز عليه : آنسه عبدو !

يحاول ان يشحن نداءه بكل ما يمنحه مركزه من سلطة.

- سأعود!

تبعته الى المطبخ وحينما عادت كانت اكثر جدية ولكني لحظت أنها تحمل غطاء للتمويه فقد كان على ملامحها انطباع ماكر.

قلت : آنسة عبدو ، قنينة ماء رجاء.

وهي تضع القنينة على الطاولة قلت لها : هل انت لبنانية ؟

- لا ، لماذا ؟

- عبدو اسم شائع في بلاد الشام.

غمزت بخفة متواطئة : هل ابدو كشامية؟

- شيء من هنا وشيء من هناك !

- الشرقيون يتحاورون بالأسئلة !

- لأول مرة اقابل شابة في مطعم تحمل ثقافة واعية وسأتذكر ذلك.

- وسأتذكر انك كنت هنا ، رجلا يهتم بالتفاصيل !

- هل اعتبر هذا اطراء ام (حرشة)؟

- ارجو ان لا تشوه صورتك لتعود كما هم زبائن المطعم ، انا عادة لا اتعاطى الحديث مع الزبائن !

ـ آسف لم اقصد ما ذهبت اليه.

كان المساء ثقيلا وهبطت العتمة تغطي كل شيء، وازدحم المطعم بنزلاء الفندق الذين يحرصون على اللجوء اليه مبكرا خشية قناص في زاية زقاق او شارع فرعي يحمل موتا عبثيا تحت ابطه ليزرعه في عيني عابر يتوخى الحذر ويمشي على اطراف اصابعه كأنه يتوجه نحو موعد حب ممنوع ، وهكذا لم يعد العراقيون يخافون الموت في الفراش فقد اصبح القتل هو العنوان لكل اسباب الموت وما عادت انماط الحياة مختلفة في اقاليم الوطن فقد تداخلت على نحو لم تعد هناك من فوارق بين البصرة والموصل او الانبار وميسان بعد ان انتقلت آليات الموت متجولة في كل الزوايا ، الموت في هذه البلاد حتى بلا لون ولا يحمل في ثناياه اية مظاهر تراجيدية ، انه موت فحسب يتجول عاريا حتى انه يصر على القول انه قد تحرر من دقة مواعيد عزرائيل وصرامة توقيتاته !

في المطعم لم تكن الآنسة عبدو في الخدمة شعرت بنوع من الأسف فهي الوحيدة التي حادثتها في الفندق ، نحن اسرى ما نتعوده ! والزبائن يجلسون في العتمة ، صرخ عامل النظافة وهو يجمع بعض النفايات المبعثرة من مخلفات الزبائن :جاءت الوطنية !
اسرع احد العاملين بفتح المصابيح فغرقت الصالة الواسعة بموج من الضوء المتدفق بفرح صاخب ، ربما هو الآخر ملّ الاحتجاز الطويل ، تحركت بسرعة نحو جهاز الكومبيوتر الوحيد في الصالة ، كنت اريد ان ارى بريدي الإلكتروني ، رؤى تسأل عن احوالي وتطلب ان اطمئنها ، عشرات الرسائل من اشخاص عبر القارات يطلبون مني ان اتصل فورا لاستلام الملايين التي كسبتها لا ادري كيف ، تحولت بسرعة الى مقالات الرأي ومواقع الأخبار ، لا زال الكتاب يدورون بحلقة (زار مصرية) ، ربما لا يعرفون هذا فهم مشغولون بالرقص الجنوني والجميع مسلوبو الارادة ، وانا اتصفح وصلتني رسالة من عنوان لا اعرفه ترددت بفتحها ولكني غامرت ، كانت قصيدة الشاعر المصري احمد فؤاد نجم:

"طاطي راسك طاطي طـــاطي
انت ف وطن ديمقراطـــــــي
انت بتنـــعـــم بالحرية
بس بشرط تكون مطاطـــــي"

ولكنا لا نعرف لمن علينا ان نطاطي ، الأمر سهل عليك يا شيخي المناضل فهناك سلطة واحدة ورجل واحد وشرطي واحد أما هنا !!!

أشاع النور الذي غمر الصالة وانار الواجهة الأمامية للفندق شيئا من البهجة في نفوس الجالسين فانطلقت احاديث متداخلة، وبدأت ضجة تتعالى لتؤكد قدرة الانسان على تجاوز اقداره ومآسيه، والبحث في عمق الذاكرة عمّا يمكن ان يدفع بظلال فرح متخفي الى عينيه.
لقد ازاح النور شبح الموت العاري ونسي الجميع انه في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم كانت حصيلة السيارة المفخخة في حي الكرادة ثلاثين رجلا وامرة واحدة.... يمكن للنساء ان يخففن الآن من دعوتهن الى المساواة !
انكسارات النهار وكآبة الشوارع الخالية احيانا والمهجورة في اغلب الأحيان تراجعت الى الساحة الخلفية للفندق حيث ما تزال عتمة يطالها حد النور الهارب من الصالة و الذي خفف بسطوته السرية من حالة الاختباء الكامل التي تمارسها اشجار اليوكالبتوس، وهي تتحرك في ليل بغداد مصدرة انينا كأنه شجى نواح من اعماق الجنوب مثقل بجراحات نسر هوى في صحراء تأكلها الشمس والرمل ووحشة قاسية، بدت الأشجار الآن مشرعة كفزاعات لم تعد تخافها الطيور فيما ظلال النور الشاحبة تتخللها، طالب البعض بفتح جهاز التلفاز ليستمع الى الأخبار ، الكل على قناعة ان جهة ما تحتكر الإجابة عن كل الاسئلة ولكنهم محشورون ومطلوب منهم الانتظار ، كانت قناة العراقية تعرض فيلما امريكيا طغى فيه صوت الرصاص ونثار الدم على كل شيء .
علق احدهم : الا يكفي مجسمات القتل في الشوارع ؟

أجاب شخص بسخرية : لكي لا ننسى !

ابتدأ الحديث يتحول الى لغط مختلط فالكل يتحدث الى الكل ولم يعد احد يهتم بما يقوله الآخر وكأنهم في سباق يريد كل واحد ان يتجاوز العلامات التي تشكل مفاصل لمراحل السباق قبل الآخرين، هل هو الخوف من الغد ؟ الخوف من ان لا يقول شيئا لأنه لن يكون قادرا على ذلك!

كنت احس اني خارج اللعبة وخارج المنافسة ، مراقب جاء بالصدفة ليشاهد قدرا ليس له وهو بالتأكيد لا يريد ان يدخل تحت مظلته! هل يمكن ذلك والقدر أعمى حتى انه لا يحمل عصا ليتبين الطريق!

قال النادل الطويل الذي يحمل رأسا صغيرة وعينين سنجابيتين لا تنفكان تدوران لتمسحا المكان كعدستي مراقبة : ستبدأ المولدة !

قالها بصوت تحذيري وتحرك الى زاوية الصالة اليمنى ليغلق جهاز الاضاءة، فتغرق الصالة بعتمة بدت خلالها الشخوص، التي ران عليها صمت مفاجئ، اشباحا خرساء وكأنها استعادت وعيها وادركت ان كل ما تقوم به مجرد عبث تزرعه اوهامهم التي تحاول ان تغطي على اسرار الفاجعة القادمة !

انتشر ضوء باهت من مصباحين معلقين في الصالة ولكن جهاز التلفاز لم يعد يعمل ، شعرت اني ادخل منطقة مشوشة ، وجه رؤى كان امامي يحمل حيرة مهمومة ، تذكرت رسالتها ، ابنها الصغير يقف في الشرفة يلوح لي ، قال الطبيب : انه يتمتع بصحة جيدة . كان ذلك طبيب العائلة ، رؤى لم تقتنع ،أصرت ان تعرضه على طبيب نفسي ، كان كيلان في الثالثة ، لا يمكن القول انه لا يتمتع بنمو طبيعي ، وفي البيت هو الوحيد وقد تفرغت رؤى لتربيته ، ابوه مهندس معماري ناجح ولديه مكتب في فيينا مع ثلاثة مهندسين ، ويكسبون دخلا اقرب الى المرتفع في ظل مستويات المعيشة في النمسا ولهذا فكيلان لا يعاني من اي نوع من انواع الحرمان ، كان يحب الجلوس صامتا يطيل النظر فيما حوله بتأمل المدرك ويراقب الأطفال وهم يلعبون واحيانا المح ظل ابتسامة ساخرة على شفتيه ، ربما هذا ما يتراءى لي فكما يقال لدى كل عائلة طفل عبقري ولكن كيلان نموذج آخر ، بدأ يمسك القلم ويرسم اشكالا مدهشة ، وحين قامت رؤى بتعليمه الحروف الألمانية ادهشها بسرعة اتقانها ثم تناول جريدة عربية وبدأ يرسم حروفها ، كان الأبوان خائفين! كنت اشعر بسعادة غامرة وانا اراقبه واحيانا يداخلني احساس بالخوف فالعبقرية متعبة وتقلص مساحات الفرح الانساني في الحياة اليومية كما انها مشوار طويل كما قرأت مرة ، الضحكة البريئة وكركرات السعادة الساذجة مهمة جدا فهل سيجدها كيلان ؟!

شعرت بالوحدة ، أخرجت محفظتي لأطالع صورته ، صوت النادل الطويل برأسه الصغير المستدير كان في اذني تماما .

- هل ستدفع الحساب ؟

الغرفة باردة ، اسرعت بإبدال ملابسي ووضعت فوقي اغطية صوفية كانت مرتبة على السرير ، حين شعرت بشيء من الدفء مددت ساقيّ مسترخيا لأغفو ، كنت متعبا والساعة كانت قد تجاوزت الواحدة قليلا ، النوم لذيذ وهو يخدر جسدي فأستسلم بهدوء غارق في السكون الذي يسكن الفندق كله .

ضجة حادة واصوات غاضبة كنت اشعر انها بقايا حلم لم اتبين ملامحه فأنا عادة انسى احلامي ، باب الغرفة يطرق بعنف وصوت بالإنكليزية يطلب فتح الباب والا سيكسره!
حين ازحت الأغطية شعرت برجفة ليس من جراء البرد ولكن خوفا مبهما دفعني لأفتح الباب.
- هل انت وحدك ؟

قالها جندي بالإنكليزية وهو يضع على عينيه نظارات ملونة ويعتمر خوذة حربية ويشهر بندقية اوتوماتيكية ويرفع رأسه يستطلع ما في الغرفة.

- نعم

- هويتك ؟

اخرجت جواز سفري النمساوي ، نظر الى صورتي وأعاد الجواز.

- آسف لما سببناه من ازعاج !

كانت الغرف كلها تخضع للتفتيش ، ارتديت ملابسي ونزلت الى الطابق الثاني حيث صالة المطعم ، شعرت برغبة شديدة بتناول الشاي ، بضعة جنود كانوا يحتلون الصالة ايضا ، يجلسون ولكن بترقب حذر فيما ايديهم على زناد اسلحتهم ، عند الباب المفضي الى المطبخ كان النادل الطويل يرتجف من الرعب ولم اجد انه من المقبول الطلب اليه ان يعد لي شايا ، جلست على كرسي الى الحائط ، تقدم مني ضابط امريكي صغير ، وجهه تحت الخوذة الفولاذية كقطعة لحم طازج.

- هل تتكلم الانكليزية ؟

- نعم !

انت نزيل في الفندق ؟

شعرت انه سؤال غبي ، تولد لدي احساس بأن الأمريكان يفتقرون الى الخيال

- لا ، انا نزيل في الغرفة رقم 101!

بدا غير واثق اني لا اسخر منه

- ولماذا تركت غرفتك ؟

: شعرت بالحاجة الى الشاي.

- هل استطيع ان اقدم لك كأسا صغيرة
- ولم لا؟

-- وددت ان اقول له ولو من باب التعويض فأنتم في بلدنا --

- تفضل

كان شايا بالنعناع لذيذا.

- انت تعمل في بغداد ؟

- لا انا اعمل في النمسا !

- في النمسا!

بدا غير مصدق
- انا نمساوي من العراق !

- فهمت.

نزل الجنود من طوابق الفندق و في معيتهم رجل ضئيل الجسم يرتدي منامة ولا يضع في قدميه شيئا وعلى رأسه كيسا من الخيش .

قال النادل وهو يتقدم نحوي بحذر : جاءنا امس ولم يخرج من غرفته ولكن اربع رجال زاروه فرادى ، كنت اشك انه مشبوه !

- ولكن لماذا لا تعتقله قوات الأمن العراقية !

نظر نحوي بشيء من الريبة.

- الأمريكان لا يحتاجون موافقة القاضي فقد يكون نائما ولا يفتح الباب للقوات العراقية !

- معقول !

الفصل الرابع

في الصالة كنت أنتظر عبد السميع الذي اتصل بي مبكرا ليؤكد حضوره لاصطحابي للأقطار سوية ومن ثم نذهب الى حفل توزيع جوائز مسابقة الابداع الأدبي في فندق ميليا المنصور ، كانت ليلة قاسية فإضافة لعدم تمتعي بنوم متواصل كان البرد يثقل علي فأشعر بمفاصلي تنز الما.

جاءت الآنسة عبدو وكأنها تسبق فاجعة ما فقد كان وجهها ممتقعا، وعيناها تدوران بضياع وكأن كوابيس انهكتها طوال الليل هي الأخرى ، اومت برأسها بحكم اللياقة وهي تراني أتطلع نحوها ، تعالى صوت مدير الفندق يطلب ان يتصلوا بمسؤول الوجبة الليلية الذي كان قد غادر قبل دقائق ليعود على عجل لأمر هام ، كان صوته قاطعا كمن تعوّد على اصدار الأوامر في معسكر ، قالت الآنسة عبدو انه ضابط سابق ، اما النادل الطويل فقال انه ضابط مغاوير ولهذا فالجميع يتجنبون اغضابه.

قالت الآنسة عبدو: هل ترغب بتناول افطارك ؟

- لا ولكني ارغب بشيء من الشاي ، احس بحلقومي مطبق على بعضه.

حين عادت بالشاي قلت لها :
- يبدو انك تعرضت لمشاكل ليلة امس !

- الكثير منها ، نحن نعيش في دوامة من المشاكل ، جارنا صحفي شاب أخرج من بيته بعد الثالثة صباحا ، كان يرتدي منامة شتوية ويتلفع ببطانية وحين فتح الباب سحبوه من شعره الى الخارج حافيا ومزقوا جسده برشقتين من رشاشات صغيرة ، كانوا ملثمين وكان لديهم سيارة حديثة ليأمّنوا سرعة الاختفاء.

- هل لديهم ثأر معه ؟!

: لديهم ثأر مع جميع المبدعين ، ولكن لدي سؤال ، هل يدخل الحفاة الى الجنة ؟ انه أمر محير!
تجاوزت تساؤلها.

- هل تسمحين بسؤال شخصي ؟

- لا بأس
- انا حتى لا اعرف اسمك !

- وبماذا يفيد هذا !

- لأرفع الحرج عن نفسي وانا ادعوك بالآنسة عبدو ، اشعر اني في دائرة حكومية.

كانت ابتسامتها شاحبة ولكنها تتضمن مكرا يستظل بغرور انثوي.

- اسمي الأول ام اسمي الكامل ؟

الحوار المتسائل مع امرأة اتجنبه في العادة لأنه يظل في دائرة الألغاز التي تنتهي غالبا بلقاء في موعد على الطرف الموشح بأطياف المساء، وانا القادم من وطن آخر لا تسبقك فيه مرارة الحياء وانت تتحدث بحرية مع امرأة ربما لن تكون اكثر من صديقة عابرة، افهم تماما كيف يفكر الناس هنا !

- اسمك الأول

- جانيت

عند الباب الداخلي ارتفعت ضجة وتدافع بعض العاملين مرحبين بثلاثة رجال ، كان في المقدمة شاب لم يتجاوز الخامسة والثلاثين طويل القامة في عينيه نظرة استهانة وعلى شفتيه، وهو يرد على الترحيب الحار والمبالغ به، ظل ابتسامة ازدراء لا يحاول ان يخفيه، ينقل قدميه بتثاقل ضجر وكأنه يرغب بالتأكيد انه يفضل ان يكون جالسا ويدفع كرسيه الاثنان اللذان يتخلفان عنه بخطوتين ، الغطرسة التي تتبدى في حركاته تكشف انه لم يتمتع بفرصة كافية لإتمام تعليمه، وانه يعرف اشياء اخرى لا علاقة لها باحترام الآخرين ، لا ادري لم فكرت انه ربما احد القتلة المحترفين الذين يتصدرون الموجة الجديدة!

قالت جانيت : ارجو ان تسمح لي ، سأذهب الى المطبخ فانا لا افضل ان التقي

بهذا الشيء!

قلت مستفسرا : لماذا؟

قالت : سأشرح لك لاحقا.

بائع سمك ، يملك زورقا صغيرا وشبكة ورثها من ابيه وكشكا على دجلة، وكباقي الصيادين في دجلة فهو يجيد السباحة ويتمتع بقوة ومرونة اكسبته اياه السباحة المستمرة ، كانت اول عملية له حين قتل احد الناشطين من احد الأحزاب ، ضربه بالميزان الحديدي على رأسه وادعى انه اهانه وشتمه، في حين يقول البعض انه لم يكلمه، بل كان يحاول ان يجلس على الكرسي بانتظار ان ينتهي كريم من وزن السمكات الثلاث التي اختارها.
الذين طلبوا منه تنفيذ العملية هم الذين تولوا ترتيب امر تغطية الجريمة، وكان اول توسع في عمل كريم قيامه بشراء الكشك الصغير المجاور له والذي كان يقوم صاحبه بشوي السمك الذي يشتريه الزبائن منه.

جاء كريم بأخيه ليعاونه ، ولكنه سرعان ما ترك بيع السمك وافتتح مطعما في شارع السعدون، ثم اختفى وترك المطعم لأخيه، الأمور في بغداد تتطور بسرعة وعمليات القتل السياسي تتسع، والعمل يزداد وليس اكثر من الدولار في السوق اليوم ، اعتقد ان كل اثرياء السنوات الأربع الأخيرة هم اما قتلة او يعملون في عصابات التسليب ، أو من سراق الدولة ، لقد اختلف الزمن الذي اقرأ عنه في بعض الأعمال العراقية، الزمن الذي سبق احتلال البعث للعراق ، فليس في هؤلاء من يملك اي إحساس بالجمال او يملك اية مشاعر انسانية متعاطفة ، كان اثرياء مرحلة (القائد الضرورة) من قرى فقيرة، وظلوا ايضا فقراء في عواطفهم الإنسانية تجاه الآخرين وعملوا على ان يستولوا على كل شيء بالقوة حتى الشهادات الدراسية !

كانت جانيت تتحدث بصوت خافت وهي تتظاهر بمسح الطاولة القريبة مني ، الجميع في المطعم يتناول الأفطار، وكريم ومرافقوه صعدوا الى غرفة احد النزلاء في الطابق الثالث ومدير الفندق طلب من مسؤول الوجبة الليلية ان ينتظر.

- ولكن لماذا مديركم غاضب ؟

- انت تريد ان تعرف كل شيء ، هل هذا من باب الفضول ام لسبب آخر ؟

- الاثنان معا ، الفضول الصحفي ، فضول نعم ، وصحافة ايضا!

- احدهم ابلغ المدير انه عند قيام الأمريكان بتفتيش الفندق شاهد بعض النزلاء يستضيفون نساء ! وبالطبع هذا ممنوع.

- مرحبا جاني!

كان صوت بالغ الرقة يحمل شحنة من عاطفة متوترة.

احسست بضربة خفيفة على كتفي ، كان عبد السميع بوجهه الذي يحمل ابتسامة دائمة ربما تكون مستغربة في الأجواء التي تحكم قبضتها على المدينة اللاهثة كي تتخلص من عنفوان رياح السموم لتتنفس قليلا متفادية الاختناق.

- صباح الخير ، انا دائما في الموعد ، ولدي جواد الذي افضل ان تسميه جودي ، شاعر وكاتب قصة واحيانا ربورتاج لصحفية ، لقد حدثته عنك طويلا.

كان جواد يتمتع كأبيه بوجه يحمل فرحا غير مبرر ، هذا ما اعتقدته وانا أصافحه ، يده تضج بحرارة تحملك على الاعتقاد انه يحمل موّدة للجميع وعيناه الواسعتان تعبران عن دهشة حقيقية وكأنه يرى كل شيء لأول مرة.

- اهلا جواد.

- يسرني التعرف عليك لقد حدثني ابي طويلا عنك.

- ارجو الا يكون قد زوق ذلك كعادته لتشويقك !

- لا ادري
قالها بعفوية

قالت جانيت : اهلا جودي ، ماذا تشربون ؟

قال عبد السميع : ليس لدينا الوقت الكافي ، مرة ثانية.

المعرفة مدهشة باستمرار، عرفت ان هناك تواطؤا ما بين جانيت وجواد ، هي كانت اقدر على ان تتخفى وراء ستارة مهنية نسجتها خبرتها في التعامل مع زبائن متبايني الأمزجة وعليها، مثل متسابق في القفز على الحواجز، ان تعتني جيدا ليس بحركة ساقيها ولكن بكل حركتها، ان لا تعطي الانطباع بأنها مجهدة، الفوز يستدعي دائما عزيمة ترتكز على الخبرة ، بدت عيناها اشد صفاء فيما تكور فمها الصغير الملون بطلاء باهت متقطع كأنه غيمة صيفية تعبر حقلا يانع الخضرة فيما تورد وجه جواد كمراهق يضبط وهو يضع عينه على شق في الشباك ليتطلع الى امرأة تتعرى في مخدعها ، كان يريد ان يحتفظ بالصورة الأبهى في يقينه وهي تتشكل نقطة نقطة عبر رحيل براءته الى عوالم لا تستكين للشهوة وانما للحب حيث تلوح مساءات اخرى ربما نستها بغداد وهي تدخل النفق الذي توارت في عتمته كل الصباحات الصافية حينما يتفتح القداح على اسوار البيوت وتشع رائحة الغاردينيا، تعطي للنهار مذاقا يغرق في التوق الى مساء تتماهى فيه اشعة الشمس المنسحبة ومياه دجلة الرقراقة والمنسابة على شاطئ ابي نؤاس .

قلت لجانيت : سنستكمل حديثنا مساء لأني سأغادر غدا.

قالت بحيادية ودون ان يحمل صوتها اية اصداء للتعاطف : بالسلامة.

هذه الفتاة رغم انها تبدو رقيقة فهي تحمل في اعماقها قوة غير قابلة للاستسلام ، الأحداث تصنع ناسها وليس فقط قياداتها .

كان المطعم الصغير على الشارع المؤدي الى ابي غريب، والذي يضج بحركة السيارات، مزدحما والزبائن يتناولون افطارهم دون اية ملاعق او شوك ، يقطعون رقائق الخبز المصفوفة على بعضها بلونها الذهبي فيما يقطر منها السكر المذاب والمعقود بكثافة عالية ، على الصحون الصغيرة تستكين القشطة المحلية ناصعة البياض وحوافها اميل الى الصفرة تكسوها طبقة خشنة بحبيبات ناتئة بعض الشيء تزيدها اغراء، تذكرت سنوات مضت، كنا مجموعة من الأصدقاء نحضر الى ذات المطعم الذي لا يفتح إلا للإفطار ،

نكثر من (الكاهي) ونزيد من القشطة وننقع كل شيء بعسل السكر المتماسك ونشرب الشاي بأقداح كبيرة ادخلها العاملون المصريون الى العراق في سبعينات القرن المنصرم ، كنا طلابا جامعيين مملوئين بالحيوية وبالأمل ، ولكن اليوم هل استطيع ان افعلها واتناول هذا الفطور الذي نسيته منذ اكثر من عقد من السنين ؟

تقدم شاب يتصدر وجهه الأسمر شاربان كثان تنزلق بعض شعيراتهما الى فمه.

- اهلا عمي ابو جودي ، طاولتكم في الداخل كما امرت!

رائحة الكاهي لذيذة وهي تختلط برائحة السكر المغلي والشاي المتصاعدة ابخرته الممزوجة بحبات الهيل من سماور نحاسي كبير ، داخلني شعور بالحميمية والألفة.

قال عبد السميع : اسمحا لي أن اختار بنفسي الكاهي (والقيمر)

التفت الى جواد : في اية ساعة سيجري الاحتفال؟

- الحادية عشرة ، امامنا وقت طويل.

شعرت ان لديه شيئا يريد ان يسرني اياه فقد كان على وجهه علامة سؤال كبيرة ، بعض الأشخاص تستطيع ان تقرأ في ملامحهم او في عيونهم الكثير.

- عمي ابو رؤى !

تطلعت نحوه استحثته ان ينطلق

- لدي طلب صغير عندك ولهذا اود ان اراك منفردين، فهل يلائمك ان احضر الى الفندق الساعة الرابعة؟ انت تعرف الان ان من غير المرغوب فيه التأخر خارج البيت مساء !

- لا مانع ولكن هل استطيع ان اكوّن ولو فكرة عن الموضوع؟

- الأمر شخصي، اذ علي ان اتخذ قرارا هاما وأبي متردد وأمي معارضة، وأنا لا أريد ان أغضبهما، واود ان يكونا على الأقل غير مستائين ، اريد ان اخرج باقل الخسائر واني اذ الجأ اليك لأني اعتقد انت تملك تأثيرا كبيرا على ابي ربما تستطيع معه ان تنهي تردده !

- لا مانع ، يمكنك ان تحضر

- ما دفعني الى الأستعجال اني سمعتك تقول انك مغادر غدا الى كركوك.

جاء عبد السميع وخلفه احد العمال يحمل اطباق الكاهي وكمية كبيرة من عسل السكر فيما يحمل عامل ثان طبقا من الألمنيوم مملوء بطبقات من القيمر مرصوفة فوق بعضها بعناية، الجو العام يشجع على المشاركة ! ولكني ترددت في ان اترك لنفسي حريتها ، كنت بطيئا في تناول الطعام واحاول ان اتلهى بشرب الشاي.

قال عبد السميع : لن الح عليك فانا اعرف ان سنوات طعام الغربة قد افسدت معدتك وانت محتاج الى دورة تأهيلية لتعود ثانية الينا.

دفع عبد السميع الحساب بصعوبة فقد كان صاحب المطعم يصر ان هذه الوجبة على حسابه اكراما للضيف القادم من النمسا خصيصا لمطعمه ، كان يردد اسم النمسا بصوت عال ليسمعه كل الزبائن الذين التفتوا نحوي بلا مبالاة ثم عاودوا التهامهم الكاهي.

لم يكن الطريق الى فندق ميليا المنصور مزدحما كما ان نقاط التفتيش لم توقفنا ، خارج المبنى الكبير والفخم للفندق ركن عبد السميع سيارته البرازيلية الصغيرة وتوجهنا الى المدخل ، ثلاث نقاط تفتيش واجهتنا كانت الأولى للسؤال الى اين ولماذا ، وكانت الثانية لطلب الدعوة بالحضور ، اما الثالثة فقد كانت تفتيشا ذاتيا كما يقال.

في الصالة التي تقع في الطابق الأرضي كانت مجموعة من رجال الدين بأزياء متباينة تماما كتباين افكارهم ورؤاهم، وربما اكثر دقة كتباين مقاصدهم من حضور مؤتمرهم المنعقد في الفندق بحماية من حشد من رجال الشرطة

العراقية ورجال المخابرات الأمريكية.

كانت قاعة الاحتفال بتوزيع الجوائز في الطابق الأول، وكنت احمل قناعة على انه في ظل كل ما شاهدته وما سمعته فاني لن استغرب اذا ما كان الحاضرون بضعة اشخاص يتملكهم هوس الأدب الذي يدفعهم الى الاستهانة بالمخاطر.

ولكن .... على العكس من توقعاتي كانت القاعة الواسعة مليئة تماما ، احيانا نشعر بالفرح لاكتشافنا انا كنا نستسلم لخطأ نتركه يتسلل الينا ونركن اليه كمسلمة قد نصدر على ايقاعها احكاما ونطلق رؤى لا تلبث ان تموت في اول النهار.

على المنصة كان رئيس اتحاد الأدباء العراقيين ... حسنا والكتّاب ايضا .. كان يتكلم برنين مأساوي ، وجهه ينضح الما وعيناه المختفيتان خلف نظاراته السميكة متعبتان.

"نحن نشكو من اهمال وعدم انتباه، قد نتفهم بعض الظروف والانشغالات بملفات اكثر سخونة ولكن نعتقد ان ملف الثقافة خطير ولا يمكن لمجتمع مدني ان يشكل دولة دون ثقافة، لذلك نهيب بالدولة للإسراع بمجموعة من التشريعات التي تخدم المجتمع ووضعه في مكانه الحقيقي، نحن نشعر بالتهميش والاقصاء ونخشى ان تكون هناك مؤامرة صمت ضد الثقافة العراقية، نحن نريد وضوحا ونريد أيد مفتوحة، نحن بحاجة الى صحوة حقيقية وانتفاضة حقيقية، نحن لا نطالب بصدقات بل بحقنا وحق زملائنا، نريد ان تحترم الدولة المثقف وتعيد اليه حقوقه المسلوبة."

فكرت ان هؤلاء يمثلون قوى الحياة التي تقف بالضد من قوى العدم التي تحاول ان تلغي كل ما هو جميل في بغداد ، اختلافهم الفكري ، تنوعهم الثقافي وانفعالهم المتوتر وهم يتحركون في هذه القاعة هو تنوع الحياة ذاتها ودلالتها في الصيرورة والتطور.

حين تقدم جواد صفقنا بحرارة ، شعرت بفرح حقيقي فانا اساهم في لحظة سمو لا ادري ان كانت ستكرر في اجواء بغداد المترعة بالأحزان ، ولكن هذه بغدادي التي اعرف والتي تعيش في الذاكرة .

في عيني عبد السميع صوت يتبدى في تلفته بكل اتجاه وكأنه يعلم الجميع هذا ولدي !
شددت على يده فنهض بانفعال يقبلني بحرارة بدا راغبا بان تمتد هذه اللحظة لتتحول الى زمن ابدي ...اضواء كاميرات التلفزيون الكبيرة وكاميرات مراسلي الصحف بومضة الفلاش السريعة، والتصفيق وابنه على المنصة يصافح رئيس الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء والكتاب العراقيين ويتسلم الصندوق المخملي الأزرق !

في الفندق كان هناك هدوء يتمدد متسللا الى كل الزوايا ، كان بضعة زبائن يسترخون في الكراسي الجلدية الوثيرة نصف مغمضي الأعين ودون حتى الرغبة في تبادل الكلام ، شخص واحد كان يدخن ويتابع الدخان الذي يتلوى منفلتا مكونا سحابة شفافة سرعان ما تتلاشى مخلفة رائحة التبغ النفاذة، على حاجز البار الخشبي ذي اللون الكستنائي الداكن، تتكئ جانيت بانتظار طلب احد الزبائن، مهمومة نظراتها مسترخية ولكن دون اية مظاهر للاستكانة او الضعف ، لم تكن هشة في طريقتها في الحديث، او وهي تتحرك تحت ظلال الصمت حين يسكن في فضاء الصالة المرتفع وحين يكون النزلاء قد تعبوا من الحديث ومن تناول الغداء ، حين تكون الساعة الرابعة هي الفاصلة التي تطير على حدود النهار ، كانت جانيت تتكشف عن شخصية متوازنة تدرك تماما الى اين تمشي وهي تتكأ عادة على البار اللامع في عتمة ضوء متخاذل ومرتبك فقد توقفت (الوطنية) التي ترفض ان تمتد زيارتها لأكثر من ساعتين رغم الملامح الغارقة بالجزع و التي يجاهد السيد وزير الكهرباء للتمويه عليها بعبارات اشبه بثرثرة النساء وهن يودعن بعضهن عند الباب، ليصبح الحديث العابر اطول من وقت الزيارة وتناول الشاي والتهام قطع الكيك، وكأنهن يعملن على تأثيث فضاء الباب المعرّض للمطر ولعبث الأطفال وهم يعودون من مدارسهم بعد الدرس الثاني لتوقف الدراسة حاملين كامل طاقتهم للعب كرة القدم، سيما وان العراق قد توج بطلا لآسيا، وظلت القنوات التلفزيونية العراقية تنقل مهرجانات الفرح طوال ليلة الفوز والنهار التالي مما اضعف صوت الانفجارات التي تناوبت في بغداد .

أومأت جانيت لي برأسها كتحية لا بد منها ولكنها وجهت نظرة استفهام عما اذا كنت سأتناول طعامي ، قلت لها سأكون شاكرا ان طلبت من خدمة الغرف ان يأتوني بالشاي.

- حاضر.

قالت ذلك باستفهام.
استدركت : هل لديكم بعض الصحف ؟
قالت جانيت : لا فالفندق لا يوفر ها ولكن لدي صحيفة تركها احد الزوار صباحا ، هل اجلبها لك ؟
قلت : اكون شاكرا.
وكمن يدفع عن نفسه تهمة التطفل غير المبرر قلت لها: عادة لا اقرأ الصحف ولكني اود ان انشغل بعض الشيء لحين مجيء جواد.

تنبهت حواسها كمن يستنشق عطرا نفاذا فيما هو تحت تأثير خدر مباغت.
- وهل سيحضر جودي ؟

ابتسامة واضحة تألقت في عينيها كشمس تتقدم بإعلان الضوء لتعلم العالم انها كامنة في عمق الكون ولكنها مشرعة دائما لأن تبعث البهجة في الزهور البرية ذات الألوان الفرحة والأوراق الرقيقة ، بدت بشرتها الوردية المشرّبة حد التخمة بسمرة تتوهج عذوبة صافية وقد اسدل عليها سحر الأنوثة طراوة جعلت مسارات الدماء الشابة عالما من ظلال تتماوج بالنشوة.
كنت استبدل ملابسي حينما سمعت طرقا ناعما على الباب ، كانت جانيت تحمل صينية من النحاس عليها ابريق من البورسلين الأبيض المزوق برسوم زرقاء وكوبا من نفس النوع وصحيفة ملفوفة بعناية ، لم يكن (قندول) السكر على الصينية ، تتذكر اني لا اضع سكرا في الشاي! .
- هل تحتاج شيئا آخر؟
- لا ، ولكن اسمحي لي فضولي ، ارى انك اليوم تعملين في الخدمة المسائية !
ضج وجهها، الذي ما يزال مضمخا بزغاريد فرحة تتقافز كرذاذ شلال يستمر باسقاط الماء، بحياء انثوي يغرق في فضول يطلب التفاصيل.

- نعم وقد اتفقت مع ابي ان يصحبني الساعة الثامنة !

كانت تحمل هدوء البحر الكاذب وهي تنسحب و في عينيها تزهو نجوم افراح سرية لا ادري ان كانت تبرز من ثنايا الذاكرة أم من توتر الترقب الذي اشاعه فيها حضور جواد الى موعده معي .

استلقيت على السرير الواسع ، كانت الغرفة مؤثثة بخزانة من ظلفتين تئنان بوجع وانا افتحها وفوق السرير لوحة مستنسخة بالوان كئيبة لامرأة تتطلع ببلاهة الى نهر تتكاثر على ضفتيه احراش وحشائش الوانها باهتة ، الى الحائط منضدة كتابة وكرسي خشبي بمساند في نهاياتها رأس افعى ،في عتمة الإضاءة الباهتة تبدو الغرفة مزرية تماما.
كنت اشرب الشاي حين رن الهاتف ، كان على الجانب الثاني عدنان قال بان السائق سيكون عندي الساعة الثامنة صباح الغد كما اتفقنا وسيظل بأمرتي طوال بقائي في كركوك لأنه سيعيدني مباشرة الى بيتهم لنتناول الغداء سوية، وان سلافة هي التي اصرت على ذلك، قالت بانك افضل أصدقائي الذين قابلتهم، قال بان علي ان اكون حذرا في كركوك فهي الآن مدينة مختلفة بكل شيء الناس والأفكار والنوايا، الحياة فيها اكثر قسوة واكثر خطرا فالكل يعادي الكل... الخطر يحث الخطى بإيقاع اسرع، سترى ان المدينة قد تجاوزت التطبيع مع الفاجعة وهي تعيش اليوم تفاصيل الموت العلني في شوارعها كأنه اعلان كرنفالي يعرفه سكانها وقد ألفوا الاستماع الى نبرته والى خطواته وهو يعبر مدينتهم.
كان عبد الوهاب البياتي يصيح :"يا قطارا عربي الوجه يجتاح المدينة". قلت لعدنان ، انا اعرف ما تمطره سماوات كركوك، رؤى تقول : بابا انت مدمن على الفضائيات العربية ، صدقني انها لا تحمل غير العويل على الفاجعة ، المدينة تحتاج الى الحب ليوقف الموت وهم لا يقدمون غير نواح كاذب.

كان عدنان يتحدث بذات العجالة ولكن كلماته لم تعد تغرق في هلام مشوش كما في السابق ، كانت محددة وعملية وتعطي الانطباع انه رجل يعرف تماما عن ماذا يتحدث.

قلت : شكرا ولكني افضل ان يحضر السائق الساعة العاشرة.

قال ضاحكا : هل انت كسول الى هذا الحد !

قلت : لا ولكن بعد التاسعة صباحا تميل المفخخات الى الراحة !

قال : صحيح ، وبالمناسبة لا تحمل هم السكن، السائق سيرتب ذلك في احد الفنادق في المدينة

قلت : سننام بذات الفندق فأنا لا ارغب في المبيت بأحد بيوت اقاربي.

تناولت الجريدة اللندنية، في الصفحة الأخيرة كان وكعادته ، العجوز المتصابي، يرفع راية الكراهية محرضا العراقيين على الاقتتال وفي الأسطر الأخيرة كان يتغزل بالروائية ذات الوجه المشحون بالرغبة والعينين اللتين تنضحان بالشهوة ويعلن بنرجسيته العالية انه لن يقرأ شيئا وسيجلس بانتظار رواية جديدة لها، وكأنه يصرخ بصوت ابن طوبال وهو يضمها بيده الوحيدة ((سأفسدك امتاعا حتى لا تصلحي لرجل غيري)).

رميت الجريدة واستسلمت لخدر النعاس اللذيذ فيما كان رئيس الجمهورية بوجهه الطفولي يملأ شاشة التلفاز بضحكة عريضة.
ولكني لم اذهب بعيدا، المسافات اليوم تتقلص باستمرار وعالم العولمة عند الباب وانت مجبر على التواصل فلا الخير يتركك ولا الشر يستثنيك، في عالم كله خير سيحاور الناس الملائكة، وفي عالم كله شر سيعبث الجميع مع الشياطين لهذا سمح الله لابليس ان يبقى وستظل هذه الثنائية هي عنوان الحياة التي علينا ان نعمل من اجل تخفيف كمية الشر وزيادة جرعات الخير لتصبح ممكنة .

كانت رؤى على الهاتف النمساوي النقال ، كانت تعتب لأني لم ارد على رسالتها الإلكترونية وقالت انها كانت تنتظر ان ابعث لها برقم هاتف الفندق! فهل لدي خطط سرية؟ قلت لها لا تكوني قاسية بسخريتك! اعتذرت بضحكة صافية ، قالت ان كيلان يدور في شقتي حين تصحبه لتنظيفها وهو يردد جدو فالح ! ويبحث تحت المقاعد وقالت ان الخبر المفرح ان مندوب البلدية طلب منها ان تحضره الى لجنة علمية لأجراء اختبارات الذكاء، تصور انه يعزف على البيانو الذي في صالة شقتك مقطوعات لا اعرف من اين سمعها ، فؤاد يتمنى لك زيارة سعيدة الى كركوك وهو سيغادر الى جنوب افريقيا لأجراء دراسات تربة لحساب شركة تعاقدت على اقامة مصنع هناك ، قلت لها سأغادر غدا الى كركوك، قبلي(كيلان) وتمنياتي بالموفقية لفؤاد، والان سيكون لديك ما تسألين عنه وتتركيني! قالت انا اعرف زوجي ولكنك السر الكبير في عالمي! قلت لها سامحك الله ، ضحكت ثانية وقالت : بابا انا امزح معك انت عالمي كله، ارجع لنا بالسلامة.

الفصل الخامس

حين تنبهت الى ان جرس هاتف الفندق الموضوع على (الكومدينو) المركون الى الحائط هو الذي يصدر كل هذ ا الضجيج الذي يماثل ازيز الشاحنات العسكرية وهي تندفع في الشارع مسرعة تتفادى القنابل المدفونة عند الرصيف ، كنت اقف في وسط الغرفة ، اندفعت في البداية دونما هدف محدد ربما كرد فعل وقائي ، لحظة فقدان للوعي بين النوم واليقظة، أو لحظة شلل كامل للأحاسيس حين يداهمك خطر مفاجئ وانت تفكر في ماذا ستشتري لزوجتك في عيد ميلادها غدا فيما تتسارع صور المعروضات امامك وينشغل عقلك في حسابات الكلفة وحدود الميزانية ، شيء من هذا القبيل تستعيد بعد صدمة المفاجأة ان تقف متوازنا وتتجه نحو الهدف.

على الجانب الآخر كانت على الهاتف جانيت تتكلم ببطئ وبصوت ملؤه سكون موح

- استاذ لديك زائر هل ترغب ان تستقبله في غرفتك ام في الصالة ؟

- في الغرفة رجاءً.

عبر الشباك كان فضاء بغداد الغائم والمعتم مقبضا ، كنت في الثانية عشر حين استمعت من امي الى اول تفسير لها عن تبدلات الطقس .

الجو الصاحي ، اوقات الربيع حين تتفتح الأقاحي وتخضر الأرض وتبدو الطيور فرحة تتنقل بخفة في مساحات العشب الزاهية وهي مبتهجة فأن الملائكة تملأ الأرض بأصوات التسبيح، اما الشياطين فانها تعمد في النهار الى معابثة البشر وقد تختبئ في اوراق زهرة برية اوحتى في رأس عصفور صغير، وفي الليل تحاول ان تصعد الى السماء ويمكن ان نرى الشهب التي تضرب الشياطين المتسللين خلسة الى الملكوت الأعلى، و في الطقس الذي تتحول فضاءاته الى اللون الرمادي القاتم المقبض فان الملائكة تعتكف لتستغفر الله وتبقى الشاطين وحدها في الشوارع تبحث عن الضحايا ، قلت لها وحينما ينهمر المطر ؟ قالت تختفي الملائكة والشياطين في البيوت فالمطر ينزل من السماء! لحظات الغروب هي الوقت الذي يجب ان تعود فيه الى البيت لأنها فراغ كامل يسد منافذ الكون ... انتبه الى النهر الصغير ستجد حينها ان الموج

الناعم الذي كان يسبح في ضوء النهار يتراجع مع الغروب ويرفض ان يداعب العتمة المتمددة على طول النهر، أكدت ان حديث معلم العلوم كفر وهو خطيئة سماوية ليس من سبيل الى غفرانها ، اضافت بتعجب :كيف نشكك في قدرة الله !

حينما دخل جواد الى الغرفة كنت اطلب من جانيت شايا لأثنين وقطعتي (كيك) كان صوتها رذاذا يذهب بعيدا دون ان يمس الأرض او يتلألأ على غصن تحركه ريح جافة.

- حاضر استاذ.

كان جواد يحمل حقيبة صغيرة قال ان فيها بعض اعماله التي قد ارغب ان اقرأها لأكوّن فكرة واقعية عن امكاناته الأدبية ، جلس الى الطاولة وأخرج كراسات وبضع اوراق مقطوعة من مجلات وصحف ، كان متوترا رغم ان وجهه ظل يحمل ابتسامة خجولة وعلى جبهته قطرات من عرق ترفض ان تتدحرج الى خديه .

قال اعرف اني تأخرت قليلا ولكن زحمة المواصلات لا تسمح بتقدير دقيق للوقت ، قلت له لاعليك فانا لن اذهب خارج الفندق و بكل الأحوال لا مواعيد لدي .

ظلت جانيت تتطلع نحوه باستفهام وهي تضع الشاي وصحني الكيك على الطاولة ببطء مقصود .

- استاذ ، اذا احتجتم شيئا فانا في الخدمة.

قال جواد : اعرف انك رجل عملي وهذا يسهل مهمتي وسأتحدث مباشرة ، انا وجانيت بعلاقة حب وقد خططنا للزواج ، أمي ترفض، كون جانيت مسيحية وكونها تعمل في فندق وابي متردد ولكنه يميل الى الوقوف حيث تقف هي ، وانا لا أ رغب بأن أسبب لهما ألما ، قرار الزواج لا رجعة عنه ، انت تملك تأثيرا على أبي وبقليل من الأقناع يمكن ان يوافق اما والدتي فالزمن كفيل باقناعها ، واحد معي يكفي بان يخفف من الشعور بالذنب تجاههما.

قلت : ولكن كيف تعرفت على جانيت ؟

قال : سأختصر الحديث عليك ، جانيت شاعرة وقد حضرت لمقر اتحاد الأدباء للمشاركة في ندوة عن الشعر الحديث وقصيدة النثر، جلست الى جانبي وكانت حريصة على تدوين بعض الملاحظات ، ربما الباقي يمكن تتبعه ، سألتها فأجابتني وطلبت منها ان تسمعني بعض كتاباتها واتفقنا على موعد ، كنا نحمل افكارا متقاربة وابدت اعجابا بقصصي ، بدأت اشعر انها تشدني وحينما تلقي علي قصائدها كان شعور بالبهاء المجلل بنقاء شفاف يغريني بالسير الى حيث يغرق قمر نيسان في اعالي دجلة وهي تغادر تضاريس الجبال وتتهادى نحو الجنوب حيث تبدأ نباتات رقيقة تشق باطن الأرض لتعانق الضوء باستسلام مترع بشوق ابدي للحرية وان انتهت وهي تشرب النهار الأول .

قلت له : ولكن هل فكرت بالمجتمع الجديد الذي تعيش وسطه ؟ الناس اليوم يتقاتلون على الطائفة وانت تذهب بعيدا في رحلة خطرة!

قال : اعرف ذلك ولهذا فنحن سنغادر الى عمّان فور موافقة أبي ، انا اعمل في الطباعة ولدي خبرة جيدة وقد حصلت على وعد من احد الأردنيين ان اعمل معه كما ان لخالي شركة صغيرة وهو بحاجة الى سكرتيرة تعمل على الكومبيوتر وتجيد الأنكليزية وكلتاهما تجيدهما جانيت ، بالطبع عمان محطة مؤقتة فنحن نطمح ان نجد مجالا للعيش في اوربا.

قلت : سأعمل جهدي لإقناع والدك فهو رجل مثقف ولكن سيكون هذا بعد عودتي من كركوك وحتى تتم مغادرتكما بغداد عليكما ان تكونا حذرين فبغداد قد تنكرت للحب !

قال : اعرف ذلك .

صمت وبدا عليه انه يتألم وان مرارة تملأ فمه.

قال: تصور انّا لا يمكن ان نمشي كما العشاق عبر العالم وعبر العصور متشابكي الأيدي ليتنقل البوح عبر هذه اللمسات الرقيقة بين روحينا ، حتى على الأرصفة المهجورة الا من بضعة جنود او عابري سبيل يدفعهم الخوف الى الأسراع وتحدوهم الخشية من حزام ناسف ، نظل نحن متباعدين ،

نرتجف حين تتشابك نظراتنا وينمو برعم الحب الذي سيتفتح يوما في ساعة نمتلك فيها حرية لقاءنا ودون ان يملك غيرنا قرار كيف نحب .

قلت : أقدر تماما وضعكما و أرجو ان تتأكد أني سأبذل ما في وسعي.

قال وهو ينهض : أعتقد أني اشعر بأ طمئنان وأرجو ألا يكون ما طلبته يزيد همومك ثقلا كما ويسعدني ان اكرر لك شكري على حضورك مهرجان تسلم الجائزة.

قلت : لا تشغل نفسك ، سأنام مرتاحا لأني أتلمس بين الحين والآخر مظاهر حياة ما تزال متوهجة تحت كل هذا الركام الذي يملأ بغداد.

بدأ مطر يمسح برفق على الزجاج وخيل لي انه مرتبك اذ كان يبتعد او يضرب الجدار ثم يعود الى الشباك ، لم يكن احد في الشارع والجنود الذين كانوا على الرصيف اختفوا .

الغرفة رطبة والمصباح المعلق الى السقف يبعث ضوءا شاحبا يزيدني انقباضا ، فجأة سطع نور قوي واضيئت الغرفة وتعرى اثاثها الخشبي المتهالك ، لقد جاءت (الوطنية) ، اصبحت املك خبرة في تحولات الكهرباء ، أكثر من معرفتي بالثابت والمتحول لأدونيس، فتحت جهاز التلفاز ، كانت هناك مئتا قناة يمكن ان يلتقطها جهاز الاستقبال ، فكرت ان النزول الى الصالة سيكون اكثر امتاعا .
بعض الوجوه جديدة يجلس اصحابها متقاربين يتحدثون بصوت خافت اقرب الى الهمس ، احدهم اخرج ورقة وبدأ يدون بعض المعلومات ، هل هو من (العلاسة)!، هذا ما فكرت به فقد كان وجهه لا يوحي بالثقة، يحمل الكثير من مواصفات ثعلب الصحارى الشرس والمخاتل وفي نظراته حذر ماكر فيما مظهره الخارجي يوحي بانه ما يزال يحمل طابعا بدائيا يبتعد عن مستلزمات الذوق ولو البسيط ، جاكيت ازرق وقميص اصفر فاقع وربطة عنق خضراء بخطوط مائلة شديدة الخضرة وعلى شعره الطويل كمية كبيرة من (الجل) ، عند الزاوية كان جواد يتحدث باهتمام الى جانيت التي كانت تنصت بصبر مولية ظهرها الى الصالة ولهذا لم تلحظني وانا ادخل ، اتخذت مقعدا قريبا من البار حيث يقف النادل الطويل ذو الرأس الذي يتناوب الحركة الى الجانبين على نحو بندولي منتظم ، طلبت قهوة ، نادى على جانيت.

- آسفة ربما تأخرت عليك.

- لا بأس ، كنت اريد قهوة ولكن هذه المرة بدون سكر.

نظرت باستغراب.

- اشعر برغبة بمذاق قوي

كنت ابرر طلبي

- لا بأس ، دقيقة واحدة فقط

حين جاء النادل بالقهوة كان على الصينية النحاسية اللامعة قطعتا بسكويت ، تريد جانيت ان اخفف من مذاق القهوة ، شيء من الأهتمام الخاص لموظفة تجتهد ان ترضي الزبائن بلمسة حميمية ولكن مهنية، كان جواد في الزاوية منهمكا بكتابة موضوع ما ، قالت جانيت انه يكتب قصة قصيرة مكثفة ، لقد كان معجبا بديوان ابنتك الشعري كان في الديوان ثلاث قصائد مطبوعة باللغة العربية ، حين سألتني جانيت عنه وهي تمسح الطاولة لتضع القهوة قلت لها يمكنها ان تقرأ القصائد المترجمة' وأضفت بافتخار الأب :انه ديوان شعر لأبنتي رؤى! .

لم تشر الى موضوع علاقتهما ولكن الربيع يعلن عن نفسه وهما يعيشان ربيع الحب ففي العينين دائما ذات الاشعاع الذي يتبدى في نظرات العشاق وهم يختلسون بخوف وبشيء من الحرج النظرات، كانت تتوجه نحوه بروحها وهي تلبي طلبات الزبائن ، كان بعضهم ثقيلا فليس من السهل الاعتراف بان امرأة تعمل في فندق او مطعم يمكن ان تكون محصنة ضد الأغواء في ظل اجواء الخيانة التي تمتد بكل اتجاه !

رفع جواد رأسه متطلعا باستفهام من يستنجد بخياله ، لم يلمحني وعاود الكتابة وقد بدا مسرورا.

قالت جانيت : اعرفه ، لقد حل لغز الفكرة التي كانت تطوف بمخيلته

- هل لديك بعض قصائدك ؟

فوجئت بطلبي

- لا أدري !

صمتت لحظة ثم قالت : حسنا لدي قصيدة لم تكتمل ، انا كثيرا ما اكتب وانا في الخدمة ولهذا احمل دائما ورقة وقلما استعدادا لحبس الخاطرة على الورق قبل ان تهرب ، احيانا انسى ما حضرني ، الكتابة ضد النسيان .

كان عنوان القصيدة (حالة عشق) وكمشاعر ووصف لأمرأة تعشق كان ما قرأته جميلا ولكني قلت لها : من الواضح انك تمتلكين موهبة شعرية واحاسيسك مرهفة وهذا الحكم العام بسبب اني لست بشاعر ولكن لدي ملاحظة ارجو ان تتقبليها.

- شكرا لاطرائك.

- لست وحدك ولكني اقرأ الان للكثير من النساء وحتى اللواتي يتبنين الدفاع عن حقوق المرأة انغلاقا على الذات واهتماما بالقضايا الصغيرة من شؤون المرأة ، نساء يستمرئن الخيانة والحديث عموما يدور في غرف النوم دون أن تخرج الكاتبة الى المجتمع دون أن تسهم في الحركة العامة للأحداث ، الا ترين ان هذا بعيد عن تلك الأصوات العالية التي تنادي بالمساواة ؟

قالت : فهمت !

قلت : وملاحظة ثانية ، في العراق اليوم الكثير من الشعر والكثير من الموت ، الا تتفقين معي ؟

قالت : نعم، لا ادري اين قرأت انه لا تخلو حضارة من الموت والشعر ، هل هناك تفسير ما لذلك ؟

قلت : نعم ، الشعر والموت يعرضان لنوع من التوافق ، هذا على رأي

(ساندرا جيلييرت) ، كما الموت هو ابو الجمال كما يقول (ستيفنز) ولكني اعتقد ان هذا الأخير لم يدخل عصر المفخخات ليرى ان في الموت بشاعة لا يمكن ان تكون موحية الا بالاشمئزاز من الفعل وبالطبع من فاعليه.

نادى زبون فاستأذنت.

- عند عودتك سنلتقي وسأدعوك مع جواد الى البيت.

- شكرا

بدأ المطر يتحول الى سيل تدفع به السماء الى الأرض قال النادل : غدا سيكون الطقس صحوا .

نظرت اليه ، كان جادا وبدا عليه انه يكلم نفسه ، انتبه لي وقال : هذا ما ذكرته الأنواء الجوية!

شعرت باطمئنان فغدا لدي سفرة طويلة والطرق غير آمنة بدون المطر !
فكرت ان من الأفضل ان اتصل ببيت اخي لأخبرهم بقدومي وليهيئوا كافة المعاملات لأني لا ارغب ان اتأخر اضافة الى اقناعهم بحجز غرفتين بأحد الفنادق التي يعرفوها في المدينة .
ليس اصعب من ان تكون وجهتك الى مدينة فنادقها يسكنها خطر ويعشش فيها قلق وان تحتاج لكي تبقى آمنا من يتكفل بتزكية فندق ما ، ربما هذا ايضا احد وجوه الفاجعة التي تتمدد ظلالها في المدن العراقية.

انحنى النادل وهو يهمس : الزبائن اليوم كثيرون والمطعم سيعاني من شحة في الطعام فهل تفضل ان احجز لك شيئا ما.

- نعم ، قطعة ستيك بالفلفل وان تكون ناضجة تماما.

- حاضر ، ولكن هل تفضل المطعم ام الصالة ؟

- المطعم ، انا اسعى الى التغيير !

حين انتبه جواد الى وجودي في الصالة كان يقف مودعا جانيت ، فكرت انهما على قناعة بانهما قد اجتازا الخيار الضيق وانهما يتطلعان الان الى عالم آخر ،ارحب واكثر استعدادا لأن يقبلهما وان يمنحهما متعة اخرى هي متعة المشاركة في بناء الحياة مع الآخرين ولن تعود الحياة ملاذا يحميك من مفخخة او حزام ناسف وانما فرصة مستمرة لأن تقول ما تريد .

قال أنا آسف لأني مضطر للمغادرة ولكن حين تعود بالسلامة سيكون لنا لقاء طويل ، قلت له وانا سأنتهز فرصة الفراغ الذي ستفرضه سفرة السيارة وسأقرأ قصصك ، ولكن قصائد جانيت سأقرأها وانا مسترخ في مقعدي في الصالة وامامي فنجان قهوة كبير وبشرط دونما سكر ! قالت جانيت ستجد كل اشعاري بانتظارك.

في المطعم كان هناك لغط مشترك ، من عادتنا اننا نتحدث في وقت واحد ، كانت هذه صفة نسائية بسبب طول الجلوس في البيت والحاجة الى الحديث، ان تسمع المرأة صوتها وان تقول كل ما تريد ولكن الرجال اليوم اكثر ثرثرة فالملل المتحفز يخلق رغبة في الاعلان عن الحاجة الى ضوضاء اجتماعية ، نوع من سياقات المشاركة !

المطعم صالة واسعة مستطيلة طليت جدرانها بلون رصاصي شفاف وفي المواجهة وانت تدخل لوحة كبيرة مرسومة على الحائط مباشرة تمثل فارسا عربيا تخفق كوفيته وهو يجري بحصانه وراء طريدة مشهرا رمحه منتظرا اللحظة المناسبة ليسدده اليها فيما خلفية الصورة صحراء واسعة وكثبان من رمال ، تعّرض الألوان للرطوبة وتبدل الطقس احالها الى رسم مبتذل خال من اية مسحة جمال، وبدا الفارس بائسا وكأنه بدوي يعاني من مرض جلدي بين فخذيه فهو لا يشعر بالراحة، وهو على حصانه وتجزم انه لن يستطيع ان يركز على طريدته وسيظل معلقا طول العمر فيما الطريدة التي امحت خطوط جسدها ما عادت اكثر من وهم لم تتضح ابعاده بعد ، الكوفية التي ترف وراءه هي الوحيدة التي كانت معالمها حية وتسهم حركتها المتموجة في الأنطباع بان الفنان الذي رسمها كان هو الاخر مشغول الفكر والشكّ يداخله في جدوى وجود الفارس وحصانه في هذا المطعم ، فهل كان يفكر بالأنعتاق ولهذا كانت الوان الكوفية اكثر ثباتا ؟

الجريدة الملقاة على الطاولة المجاورة لي والتي تركها شخص غادر لتوه كانت

احدى الصحف المحلية وفي بغداد اليوم اكثر من مئتي جريدة ، كان المانشيت العريض على الصفحة الأولى يعلن عن استشهاد اكثر من اربعين شخصا في بعقوبة ، في الداخل كانت اخبار القتل العشوائي تزدحم وعلى الصفحة الأخيرة مانشيت عريض آخر يشير الى تجاوز قتلى الجيش الأمريكي الثلاثة آلاف وخمسمائة جندي ، العزاء ان كل هولاء العراقيين والأمريكان ماتوا وهم وقوفا ، لم يمت احد منهم في فراشه وليظل خالد بن الوليد بحسرته !

حاولت ان اجد شيئا يمكن ان يبتعد بي عن اجواء الموت فذهبت الى الصفحة الثانية التي كانت تنشر قصيدة لشاعر شعبي لم استطع تتبع معناها ولكني فهمت انها تبكي الموت الذي يتمدد في شوارع العراق ! رميت الجريدة

قالت جانيت بصوت ناعم متودد : استاذ هل اجلب لك طعامك ؟

كنت اود ان اقول لها، اما انا فاني اود ان اموت متخففا ولكني عزفت عن ذلك واومأت برأسي موافقا.

النادل الطويل يتقدم الى المطعم حاملا صينية نحاسية لامعة عليها بضعة فناجين قهوة واقداح شفافة فارغة وقنينة ماء ، يرفع قدميه ببطء ليصعد الدرجات الثلاث التي تفضي الى فضاء المطعم واثاثه ، في الطريق الى الخروج، الرجل (العلاس) بوجهه المريب والمتآمر ، رفع ذراعه ليلقي التحية على رفاقه وهو يلتفت نحوهم ، في اللحظة التي اصطدم فيها بالنادل انفجر صوت حاد جراء ارتطام الصينية وفناجي القهوة وكؤوس الماء بأرضية المطعم البورسلين، صوت وحشي دونما رنين، توقفت (الوطنية) وفي البدء غطى لون رمادي مشوّش الصالة ثم ساد ظلام ، ارتطم جسد بشري بحاجز الألمنيوم الذي يفصل بين المطعم والممر وصرخ رجل متأوها وهو يشتم رد آخر بكلمات بذيئة فيما صمت الجميع ، الرعد زمجر في سماء بغداد مغضبا فيما شق نور باهر الفضاءات المغلقة بغيوم تتراكم باستمرار ولمحت النادل الطويل ينزف من انفه دما فيما كان الرجل الذي سميته (العلاّس) يقف متحفزا شاهرا مسدسا كبيرا وقد بدا وجهه المكفهر بالغ القسوة ، صرخ مدير الفندق يطلب من احد العمال ان يملأ المولدة بالوقود ويشغلها.

ليس من السهل وضع الحادثة في مجال التأويل كشاهد يمكن ان يفسر بعض خفايا السياقات التاريخية للتطور الديمقراطي في العراق، فالمفاجأة والخوف

وردة الفعل التي لا يندرج في خياراتها الأنتظار، وتبيّن الحدث كلها استثناءات ولا يمكن اعتبار اي منها ثابتا للقياس ، يمكن الجزم ان الانسان في بغداد يعي انه مرشح للموت ، كان الشعار السابق (العراقي مشروع دائم استشهاد) المشروع اليوم علني ولا يشوبه غموض ما والمكافأة الحصول على غداء مجاني مع الرسول الكريم، وبيت للحريم يضم سبعين فتاة باكر مختومة بالشمع الأحمر وتحمل شهادة رسمية بذلك.

عاد المصباح المعلق في الصالة يرسل ضوئه الشاحب وخرج الرجل بعد ان اعتذر من النادل ودس في جيبه بعض الأوراق النقدية ، كان حسن السائق الذي اقلني من المطار يقول يمكن حل كل المشاكل اليوم بالنقود ، معاملتك ستنتهي بنفس النهار اذا دفعت ، مسح النادل الدم دون ان يضع شاشا على الجرح الذي كان ينزّ.

قالت جانيت انها ستعمل في الوجبة المسائية ايضا لأنها ترغب ان تتفرغ غدا لتذهب مع جواد الى اتحاد الأدباء والكتاب لحضور ندوة حول حدود المتخيل في الأدب النسائي الحديث، قالت بان الموضوع سيتناول من العراق لطفية الدليمي وسميرة المانع وعالية ممدوح، ومن الجزائر احلام مستغانمي وفضيلة الفاروق ومن بلاد الشام غادة السمان ومن المغرب مليكة مستظرف، انت ترى اننا في العراق نتحدث عن الخارطة العربية، كنت اريد ان اتعرف على مزاجها الفكري فقلت ، ولكن انت مع من ؟ قالت افضل سميرة من العراق وفضيلة من الجزائر اما مليكة فانا لم اقرأ لها ، قلت ، يمكن الأستعانة (بكوكل) ، قالت نعم كلنا نرجع للعم كوكل ولكن الكهرباء تخذلنا.

طلبت ان يأمّنوا لي اتصال هاتفي بكركوك ، قالت جانيت هل تريد الخط هنا ام في غرفتك ، قلت لها في الغرفة رجاء.

كانت ابنة اخي الكبرى في الجانب الآخر.

- لقد انتظرنا طويلا ان تتصل بنا ، امي شعرت بالقلق فأخبار بغداد غير مطمنة ، على اية حال متى ستحضر؟

- غدا وربما بعد الثانية ظهرا ، كيف انتم ؟ ارجو ان تكون المعاملات جاهزة وافضل ان تكونوا قد كلفتم محاميا بذلك.

كانت شهيناز صبية جادة وخشنة الى حد ما حين رأيتها آخر مرة قبل اكثر من عشر سنوات، قلت لها مازحا الله في عون الرجل الذي ستتزوجينه ، قالت الله في عوني لأني سأبذل الكثير لأجعله (يمشي على العجين ما يلخبطوش) أليس هذا ما تقوله المسلسلات المصرية ؟

هي اليوم أم وتعمل في التدريس وتفرض سلطة مطلقة على اخويها والبنات الثلاث الأصغر منها ، في الشرق يجب ان يكون هناك من يتخذ القرارات السريعة والحاسمة مقلصا مساحات الأختيار كيما تتجنب العائلة مواجهة مشاكل اضافية ، السلطة في الدم وفي نسغ الحياة والبعض لا يرغب بصداع مستمر ولهذا فانه يستكين الى من يفرض نفسه ، مفكر عربي قال (وهذا ايضا من الأستثناءات لأن المفكرين العرب لا يقولون عادة) اننا نملك استعدادا لتقبل المحتل.

- بالمناسبة اكون شاكرا لو قام (صدقي) بحجز غرفتين بإسمي بأحد الفنادق التي يطمئن لها ولمدة ليلتين.

قالت هذه شتيمة ، لدينا اربعة بيوت وتسكن في فندق ، قلت لها لا تشغلي بالك هذا لأستطيع التحرك بحرية، لم تقتنع و دار حديث طويل ولكني كنت مصرا، فقالت انها ستفعل ذلك نزولا عند رغبتي ولكنها وبلهجة مواربة سألت عن رفيقتي التي اطلب حجز غرفة لها هل هي من النمسا ام من بغداد ! قلت لها من بغداد وسأخبرك بالأسم عندما احضر ، ضحكت وقالت ، وغدا سأحكم على ذوق عمي !

تذكرت ميسون ، كان طيفها يقف في عتمة الغرفة يغرق بلون ازرق يتماوج في ممر الهواء الذي يتسلل من فتحات سرية في الشباك الواسع ولكن طيفها يصر على الثبات في مكانه يتطلع برقة آسرة ، كانت ثابتة كما هي دوما يتحرك في عينيها ألق ساحر ، بدأ نعاس متباطئ يتسرب الى جسدي ، كم وددت ان تكون معي ، كانت تجد في كركوك نكهة خاصة .

- فالح ، كم ارغب بأن لا يعبثوا بالمدينة كما فعلوا بغيرها وان يحترموا هذه الخصوصية ، مدينتكم لها مذاق عذب.

قلت لها : المدن كالنساء !

نظرت نحوي وفي عينيها نظرة ملامة.

- يؤسفني انك تقول ذلك ، كلما قرأته احس بابتذال التوصيف ! على الرجل ان يفهم ان خرائط النساء اكثر تعقيدا ، وهو كالعادة مصطلح ذكوري وفي الحقيقة لا ادري لم يصر الرجل على ان ينحشر في زاوية ليحدد مجال رؤيته ؟!

لم ارد ، كانت من اللحظات التي تبدو فيها ميسون متشددة ويحدث ذلك حينما تتألم بعمق ، فتبدو كقرنفلة حمراء تتحرك برقة متمايلة الى الجانبين وهي تتسلق غصنا غضا لا يقوى على الثبات في مواجهة النسيم الربيعي المشاغب ، اطبع قبلة على خدها البلوري الذي تذوب فيه شمس نيسان ويتراجع موج البحر ويتلألأ في عينيها سحر انثوي فاتن وانا الملم شعرها الذي تعابثه الريح فينشر عطرا عميق السحر ، تستكين بدعة وهي تغمض عينيها ، قلت لها كم حلمت امام عظمة جمال الجبل وانا ارنو اليه مبهورا بجلاله الغامض ، قالت تصور انه يعطي العالم ثباته!

غدا سأكون في كركوك وحدي ، سأقف عند سفوح حمرين وسأتطلع الى جبال زاكروس ، من هنا تركنا العراق ، حين وقفنا ، هي تمسك بيد (رؤى) وانا أحمل حقيبة صغيرة فيها كل ما نملك والرجل الذي تكفل بعبورنا سلسلة الجبال الى الحرية يتقدمنا ببضع خطوات.

قالت ميسون : هذا العالم القديم سيظل اكبر من ان ننساه .

قلت يجب ان نتركه اولا!

نظرت نحوي وقالت :ان شاء الله .

نحن نحمل في جيناتنا خوفا دائما ولا نستطيع العيش دونه ولهذا لا نتصور ان عالما دونما خوف يترصدنا هو عالم طبيعي !

كنا نتوشح الحزن والذكريات المرة و ننشغل بالمخاطر المجهولة ونحلم بمدن

اخرى حيث الصباح لا يحمل معه غير هموم العمل وصياغة المستقبل ، وغدا سأكون وحيدا تطالعني غيوم تجاهد لتعبر الجبل وذكريات تتسلق بيسر جسد الضباب حيث تختفي بقايا الالوان الشاحبة بضوء الشمس الواهنة وهي تعبر سلسلة الجبال والغيوم ، ذكريات ستعيش رؤى في ليلي القادم في مدينتي التي سأعاود اكتشافها ولكن وحيدا.

احلم بان استعيد ميسون من تلك السماوات الصافية الزرقة لتطوف معي بابتسامتها التي تشرق كقمر في ليلة صيف ، سترين ثانية القيصرية والنهر الصغير الذي كنا نجلس عند ضفافه الغربية في مدخل المدينة متمددا في دفق الاشعة المنفلتة من اسار الجبل وانت تصرين ان اضع بين قطع اللحم على النار حبات الطماطم القوية ، ترميها نحوي ...تضحكين كم اشتاق ان المس كفيك الساحرتين وامسح عن وجهك الغبار الخفيف الذي تنثره الريح المعابثة وهي تجتاز الجانب الشرقي لتدخل المدينة، أن اجمع الظلال التي تسكن فوق وجنتيك وهي تعبر المسافات تحمل على رفيف اهتزازاتها روائح مختلطة من نباتات برية، كنت تضحكين بمرح طفولي حين اشم وجنتيك واحدد اسم النبات الذي سكنت رائحته على انحدار الخد ... انت تبالغ ! تقوليها بمكر، ارد انها حساسية فطرية يملكها ابناء البراري، كانت وهي تحتضر تنظر في عيني بنظرات واهنة ارهقها المرض وطول الرقاد وتقول ، فالح اشعر بالرضا لأني اغادر اولا لأنك لا تتصور شعوري لو سبقتني ... مضت ميسون وحيدة، الأشهر الأولى كانت بالغة الصعوبة حتى اني لم استطع ان ابقى في البيت فقد شعرت اني اختنق وان الجدران تضغط المكان و الزمن يضيع في متاهات فضاء ليس فيه غير الفراغ ، ولكني تقبلت الواقع الجديد واندمجت في مشاغل يومية متعددة الجوانب واليوم اجد في نفسي القدرة على التفكير في دخول شبكة عدنان ولكن عن اي شيء ابحث واية مكاسب اريد تحقيقها ؟ !

الفصل السادس

لم اسيقظ مبكرا كعادتي وحين بدأت جلجلة الهاتف الموضوع قرب رأسي والذي كان يهتز محدثا جلبة بصرير حاد، رفعت السماعة بسرعة فقد كان الصوت نشازا يفقدني لذة الأسترخاء على السرير.

- نعم

- استاذ طلبت ان تصحو عند الثامنة ، هل تفضل الأفطار في الغرفة ؟

كان صوتا رجاليا خشنا فكرت انه ربما امتداد لصوت الهاتف ، يبدو احيانا ان هناك توافقا قد لا يكون مقصودا بين مجريات يوم ما ، بعض الناس يتشائمون منذ اول الصباح حينما يطالعهم وجه لا يرتاحون اليه ، لم اكن منهم ولكني في الحقيقة شعرت بشيء من تعكر المزاج.

جمعت حاجياتي البسيطة بسرعة واغلقت الحقيبة وتركت قصص جواد في ملف لأحمله بيدي فقد اجد في تلك القصص بعض التسلية وانا في السيارة.

تناولت افطاري في المطعم ، كانت شمس هادئة مسترخية تعبر الشباك الكبير وتغمر الصالة بضوء رخي ، اصوات الملاعق في كاسات الشاي الصغيرة تصدر صوتا ناعما ومن عاداتنا اننا نستأنس بهذا الصوت، والبعض يظل يحرك الملعقة رغم ان السكر قد اختفى تماما.

قال النادل الطويل : لقد تأكدت، ان الأنواء الجوية لا يكذبون ، الحمد لله!

استغربت فأي معجزة في نتائج دراسة الطقس

- وهل تجد في ذلك امرا غريبا؟

قال : نعم !

صمت لحظة وتأكد ان لا احد يسمعه غيري.

- استاذ الكذب في كل مكان ، في المذياع وفي الفضائيات وفي وعود

المسؤولين وحتى في فندقنا ، ان نجد صدقا في مجال ما أمر يصعب فهمه ، هل تفهمه انت ؟ أنا لا افهمه !
قلت : ربما في فرصة اخرى نتحدث عن ذلك.

شعرت انه سرّ لأني نقلت له انطباعا ايجابيا بالمواصلة ، تقدم مدير الفندق نحوي ، كان رجلا تجاوز الخمسين وقد فقد شعر رأسه منذ زمن وعلى عينيه نظارة انيقة ربما جلبها له احد الزبائن من عمان ، لا يزال محتفظا برشاقة في جسده وفي حركاته ومن الواضح انه يستطيب اصدار الأوامر والشعور بأنه المدير ، كان جديا ومتجهما بعض الشيء وطوال اليومين اللذين قضيتهما في الفندق، لم اره يتبسط مع منتسبيه ولم يحاول ان يتجاوز مع الزبائن حدود العلاقة الرسمية، كان يرتدي طقما من قماش انكليزي أزرق اللون وقميصا أبيضا مع ربطة عنق حمراء داكنة عليها ورود مطرزة باللون الأسود منثورة بتناسق.

- استاذ فالح ، آسف لأزعاجك ولكن السيد عدنان وهو كما تعلم عزيز علينا طلب ان استفسر منك عما اذا كنت ترغب ان نحجز لك غرفة عند عودتك وبالطبع هذا اذا كانت الخدمة لدينا قد راقت لك.

- بالتأكيد افضل ذلك.

- ما هو التاريخ ؟

- هذه هي المشكلة فانا مرتبط بعمل ليس بيدي تحديد نهايته

- ولكن من المهم معرفة تاريخ الحجز ؟ لأنا نتوقع استقبال مجموعة من مرافقي بعض الوفود التي ستحضر الى العراق.

- حسنا لنقل بعد اربعة ايام.

- شكرا استاذ.

استدار لينصرف ولكنه تذكر شيئا فالتفت نحوي باحترام مهني

- بالمناسبة ، لقد سدد السيد عدنان الفاتورة.

لم اعترض لأني اعرف ان ذلك غير مجد

رأيت النادل الطويل يشير نحوي لشاب في الثلاثينات داكن البشرة بدا لي انه يتمتع بصحة جيدة فقد كان بالغ الحيوية وهو يتقدم.

- صباح الخير استاذ ، انا السائق المكلف بالذهاب معك الى كركوك ، هل اساعدك بنقل الحقائب ام انتظرك عند السيارة؟

كانت لهجته مهذبة ومن الواضح انه يتمتع بحس من يقدر مسؤوليته.

قلت : شكرا افضل ان تفطر فقد يكون الطريق طويلا.

ابتسم الشاب وقال : شكرا استاذ انا اتناول فطوري عادة قبل الخروج كما ان على الطريق الكثير من المطاعم.

قلت له : والكثير من الأحزمة الناسفة ، افضل الا نتوقف في تلك المطاعم.

قال بهدوء : حاضر استاذ.

تناول النادل الطويل حقيبتي وقال : لن تحضر اليوم الآنسة جانيت ، كان بودها ان تكون في وداعك.

نظرت اليه بشيء من الدهشة

قال : هي التي قالت ذلك ، كما انها تقول انك رجل مثقف وحتى ان ابنتك شاعرة في المانيا ، هل هناك ايضا شعراء شعبيين؟ اعتقد ان عدد من في العراق أكبر من كل ما في العالم ، وفي الحقيقة انا لا افهم كيف يستطيع الأنسان ان يكون شاعرا ، لقد جربت ذلك ولكن جانيت تسخر مني ، ذهبت مرة معها الى اتحاد الأدباء وقد صفقوا لها ، ان هذا مما يسعد الأنسان.

كان كمن يكلم نفسه ، كنت اسير امامه الى السيارة، وشعرت بان لهجته وهو

ينطق الجملة الأخيرة بدت حزينة رغم انه من الصعب التأكد من كونه راضيا او قال ذلك بسبب شعور عال بالمرارة، فقد كان دائما يحمل ذات الأنطباع المحايد واحيانا اللامبالي حتى انه يبدو وكأنه يتحرك بآلية ثابتة.

كان السائق يمسح زجاج النوافذ التي كانت صافية وهي تسمح لأشعة الشمس التي ما عادت مسترخية وكأنها تستعد لأجتياح حاد يملأ الكون ضجيجا.

وضعت بضعة الآف في يد النادل الذي حاول ان يعتذر ولكني اغلقت يده على المبلغ ، شكرني بعبارات خجولة وتمنى لي سفرة سعيدة.

قال السائق ، هذا الرجل بسيط

- نعم

- لقد تعودت على رؤيته ولكن من الغريب اني لم اسأله عن اسمه !

- نعم يبدو ا هذا غريبا ، انا الآخر لم اهتم بذلك !

فتح باب السيارة وانتظر ان ادخل ليغلقه.

قلت له : اترك الباب واجلس خلف المقود ولا تفعلها ثانية!

قال : السيد عدنان طلب مني ان أخدمك.

قلت: لن اقبل ذلك انت سائق وارجو ان لا يغيب هذا عن بالك .

كان مدير الفندق بطلّته الرياضية ورأسه الذي فقد الشعر منذ مدة يقدم لي لفة اسطوانية قال انها قليل من الطعام للطريق ، لم اعارض واخذها السائق ، في حقيبة يدي الصغيرة رن هاتفي النقال الذي نسيته ، فكرت ان ابنتي رؤى ما تزال قلقة ، كان الصوت عميقا ويتحدث بلهجة فخمة وبالمانية تتعمد الأيجاز.

- السيد فالح .. اين انت يارجل !

قلت : مع من اتكلم رجاء؟

- حسنا انت تنسى بسرعة ! مع فشر مان

- السيد مان كيف صحتك

- ولو ، ثلاثة ايام وانا في الفراش ولم تسأل ! ماذا يشغلك ؟

- اسف لمرضك واتمنى لك الشفاء ، انا في العراق الآن.

- واو ! تتكلم اذن في ظل الأنفجارات وحرب الشوارع ، غريب ان يعبر صوتي اليك !

- ليس كما تتصور ، هل من خدمة يمكن ان اساعد بها

- لا ، هل اطلب من الأمم المتحدة مساعدتك ! نحن صوتنا يتحرك بحرية

كان يمزح ، رغم جديته وهو ابن الثمانين وبضعة أشهر الا انه يميل الى نوع من المزاح الأنيق والعفوي ، فقد احدى ساقيه في الحرب العالمية الثانية كانت الحرب على وشك ان تضع اوزارها حينما سقطت قذيفة مدفع دبابة على الموقع الذي كانوا يتحصنون فيه في غابة على الحدود ، كان مع فريق صغير للمقاومة ضد النازية ، شاب طويل القامة بادي الهزال بسبب فترات التخفي وقلة النوم والخوف المستمر من رجال الغستابو اضافة الى تعذر الحصول على الغذاء الكافي ، هو الان يكتب في صحيفة يومية باسلوب ساخر وله الكثير من القراء كما انه رئيس جمعية (النحالين) ولديه مزرعة صغيرة ومنحل نموذجي ، الأصدقاء وانا منهم نشتري منه احتياجاتنا من العسل وتصرّ رؤى على أنه يبيع أصفى عسل وتفضّله عند اعداد بعض انواع (الكيك) ، رغم روحه المرحة كنت الحظ في عينية احيانا مسحة حزن خفي ، وحين سألت السيد (آزوري) عن ذلك قال بانه يعيش وحيدا منذ ثلاثين سنة، بعد ان فقد زوجته وولده بحادث سيارة ، كان يقودها وهم عائدون الى فيينا بعد اجازة قضوها في مايوركا على البحر، كان يحب زوجته كثيرا فهي امرأة تتمتع بقدر من الجمال وحب الحياة وعشق زوجها ، لم يحاول ان يجد سلوانا مع امرأة

اخرى ولكنه لم ينقطع عن الحياة العامة، قال آزوري : في عالمنا اليوم القليل من قصص الحب !

- شكرا سيد مان واعتقد انه بقليل من الحظ يمكن ان اعود لكم ثانية ، هل ترغب بشيء من العراق ؟

- نعم ، كوفية حمراء.

صمت قليلا واردف : لقد اتصلت بك في الحقيقة لدعوتك لأجتماع طارئ لجمعيتنا بمناسبة زيارة وفد من (النحالين) من فرنسا ولكن من حسن حظك انك مسافر فرفاقنا الفرنسيين يتحدثون كثيرا ، الى اللقاء واعتن بنفسك.

- شكرا وبالتأكيد سأجلب لك الكوفية.

قال السائق : هل نتحرك ؟

أومأت برأسي بالموافقة

الشوارع تعاني من اختناقات مرورية والتوقف عند نقاط التفتيش يمثل معاناة حقيقية ، بعد التاجي انفرجت الأزمة واصبح من الممكن ان تنطلق السيارة بسرعة معقولة.

- قد اضطر الى مناداتك فهل تعرفني باسمك ؟!

- العفو استاذ كان تقصيرا مني ، اسمي فاضل وانا خريج معهد التكنولوجيا، وقبل ان تعبّر عن استغرابك اقول ان هذه الوظيفة هي احسن ما امكن الحصول عليه، والسيد عدنان يعاملني باحترام.

- حسنا يافاضل ، هل يمكن ان اطلب منك ايقاف هذا الغناء الحزين حد النواح؟

- حاضر ، هل تريد أن تستمع الى فيروز ؟

- لا افضل ان أركز على القراءة بعض الشيء وان تنتبه انت الى الطريق!

كنت اريد ان اقرأ قصص جواد فقد استهوتني لغتها الواضحة واسلوبها السردي المكثف وغير المباشر، من الواضح ان الكتاب الشباب يميلون الى الأغراق في غربة عجائبية ويبدو ان تأثير(ماركيز) يمتد الى اصغر قرية في العراق.

الطريق مليئة بالعربات العسكرية ويصعب علي التمييز ما اذا كانت تعود للجيش الأمريكي ام العراقي عدا الشاحنات المكشوفة والتي يستقلها جنود حينها استطيع تحديد عائديتها ، كل المظاهر تشير الى ان حالة حرب حقيقية ستندلع في اية لحظة، فالجنود بوضع استعداد للمباشرة بمهامهم، والعديد من العربات تسحب مدافع مختلفة اضافة الى الشاحنات العملاقة التي تحمل الدبابات والمدرعات الثقيلة ، وجوه الجنود العراقيين كانت شديدة السمرة ربما بسبب الشمس والخوذة الحديدية التي تغطي نصف الوجه ، كانوا شبابا يبحثون عن عمل وعليهم ان يتدربوا جيدا لممارسة الحرب. كيف يفكرون بالمستقبل ؟ ربما تعلموا ان يتركوه خلفهم ، نحن في زمن لا يتحرك وفق قاعدة فيزيائية معروفة، وهم مجزأون ولم يحن الوقت ليستعيروا صرخة (هاملت) ، وهم يتوجهون بكليتهم الى متاهات الروح الغارقة بعتمة مشوشة ليقولوا (من هناك) ؟!!، وجوه الأمريكان متجهمة يحتلها ضجر ممزوج باحتقار ، في نظراتهم صمت مميت .

قال فاضل : انهم يذهبون الى الموصل !

لم ارد عليه

انسحبت الغيوم كلية من السماء فبدا كل شيء لامعا ونديّا وتصاعدت رائحة طازجة من البساتين والحقول على امتداد الشارع، وظهرت بضع قبرات بتيجانها تتنقل دونما عجلة وهي ترقب الشارع كلما رفعت رأسها عن التهام طعامها، ربما غفوت على رتم صوت السيارة، كانت صور البساتين المدمرة عالقة في ذهني وعلى امتداد الطريق ترع يسكنها العطش وعصافير لا تنفك تغمس رؤوسها في الحفر التي يركد فيها ماء اصفر اللون، وبضع حشائش مما كنا نسميه (الشبنت)، رجال منهكوالقوى يجلسون عند ابواب البساتين المركونة ابوابها الخشبية الى الحائط وهم يدخنون تحت سماء بدت فراغ ابدي يغرق في صمت مريب مشحون برجفة مؤجلة قد تقع في اية لحظة لتهز

السعف المتدلي فوق الرؤوس، النخيل مترقب يشخص بتحفز نحو الشارع والشاحنات العسكرية والجنود الصامتون ابدا كأنهم استهلكوا كل ما عندهم منذ زمن طويل، التضاريس بدأت تتغير فثمة تلال تتقدم على استحياء والشارع اصبح متموجا والسماء تبدو اقرب من ذي قبل وتتلاقى مع الأفق في جانبيه الشرقي والغربي، فيما تحلق مجموعة من الطيور المهاجرة مشكلة قوسا كبيرا مفتوحا على مساحة واسعة يتقدمها طير ترف اجنحته ليظل في المقدمة وعلى مسافة تسمح بالتأكيد انه القائد ! في وسط القوس كان هناك ثلاثة طيور بخط واحد تحرص على عدم الأخلال بانتظامه ، اين ستحط ؟ الطيران الحر يظل هو الآخر، رغم السكون الموشوش الذي يجعله بعيدا في سماء عريضة وواسعة ،عرضة لمخاطر رصاصة صياد قد يكون منتظرا تحت شجرة عوسج في منحدر تل مجهول ، تطلع ارنب رصاصي اللون الى السيارة بفضول ارعن واستدار بهدوء متخليا عن حذره الغريزي ، كانت ميسون ترفض ان تطهو الأرانب المجمدة التي اشتريها من ابو سعدي ، ولكنها تتكاثر بمتتالية هندسية واذا لم نأكلها فقد يأتي اليوم الذي تأكلنا هي فيه، الأرانب؟! تقول برنة شك ساخر: الأرانب والضفادع لا يمكن ان يأتي اليوم الذي اضطر فيه الى تناولها ، كنا في دعوة لدار البلدية وكان على الطبق ، المجاور لقنينة النبيذ الأحمر الذي يبدو في الأقداح الكرستالية الصغيرة بلون العقيق الصافي ، ضفادع كان بعضها مشويا والآخر مقليا وكلها مغطاة بقليل من سائل لزج شفاف برائحة الثوم، لم انتبه الى انها تناولت قطعة منها فقد كان منظرها اشبه بتلك الزازير التي يبيعها ابو حنا في البتاوين ايام الربيع نصف مشوية ونصف مملحة ، همست بأذنها : حسنا لقد تذوقت الضفادع ! لم ترد ولكنها كمن اصيب بنوبة قيء تعذر عليها ان تصل المرافق واضطررنا ان نترك المكان وانتابتها حالة من فقدان الشهية لأكثر من اسبوع.

على الجانب الشرقي بدت بعض القرى على خط الظلال التي تنتهي عند شجيرات الصفصاف وكأنها ترسم استكمالا سرياليا للوحة تكاد ملامحها تتماهى ولون التراب المائل للحمرة، اضطر فاضل للتخفيف من سرعة السيارة فقد بدأ رتل امريكي بتجاوزنا فيما لوح ضابط بنظارات سوداء بأن نأخذ اقصى اليمين ، تطلع ثعلب من خلف نبتة حنضل تتمدد بخضرة لافتة ، لم يكن خائفا فقد حدق بنا بهدوء غريب قال فاضل : بالطبع فهو الآن في حماية امريكا العظمى ! كانت عيناه مليئتين بمكر قاس وتنطقان بخبث لا تخفف منه حلاوتهما ، كانتا واسعتين شديدتا السواد وتوحيان بانهما يحملان كحل رباني ! قالت السيدة فلاتر وهي المسؤولة القانونية في دار البلدية : لم اشاهد اجمل من

هاتين العينين ، كانت السيدة فلاتر قد احتفلت بعيدها السبعين قبل اسبوع، وبالمناسبة دعوناها انا وميسون لتتناول القهوة عندنا ، كانت القناة النمساوية الأولى تعرض الخطاب المتلفز للشيخ اسامة بن لادن .
اقترح فاضل ان نركن لنشرب الشاي في المقهى الصغير المنعزل ريثما يمر الرتل الأمريكي.

المقهى يحجب ضوء النهار في الداخل فتنتشر عتمة الغروب والسماء تختفي وراء غيوم رمادية لا تتحرك ، صور مشوشة لرجال لا يتكلمون وهم يرفعون ايديهم الى افواههم باقداح الشاي وكأنهم يتلمسون الطريق الى مسافة ضائعة بين الخوف الغامض والأمساك بآخر الكلمات التي لازالت في الذاكرة من (آية الكرسي) ، حين بدأ يستوعب المكان لاحظ انه يجلس قرب رجل يحمل ربابة ويحدق في الفراغ المشوش زاما شفتيه ، قال فاضل هل ترغب بالشاي الثقيل ؟ كانت ميسون تقول انها تعودت على الشاي في اوربا الذي يقف بين الأصفر والأحمر لون شاحب يرطب الشفاه ويدفء المعدة. "ثقيل وبكأس كبيرة !" قالها فاضل وكأنه يعود الى الصبا حين كانت امه تمنعه من تناول الشاي بالمرة ، قال الرجل صاحب الربابة ، الشاي دبّاغ المعدة ! انقطع صوت الشاحنات الأمريكية.

قال فاضل: الربابة صوت الحزن الفطري.
ابتسم الرجل : ومتى كان الفرح يسكن هذه الأرض؟!

غناؤنا مفعم بالفاجعة التي تنسل الى اعماقنا فنرتد الى دواخلنا متآلفين مع عزلتنا ونتحول الى جزر منطوية على خلجانها رغم اننا نشخص الى المغني وقد نطلب بصوت واحد استعادة المقطع الأكثر ايلاما، في النمسا يتحول الغناء الى فرح جماعي تشتبك الأيدي وتتواصل الضحكات بتبادل منسجم ومتواطئ احيانا وتعلو الأصوات المشتركة بفرح لا يعرف الأغتراب.

مد الرجل يده الى الربابة فشخص الجميع نحوه ، لامس الوتر برقة وارتفع صوت ناعم موغل في القدم كأنه ينهض من اعماق التاريخ:

يا ساعَه يا يُوم كِلّي
يا شهرْ يا سَنَه
إنْظَلْ برِجاكُم يو لا يِنكِطِعْ ياسَنا

إسْأَلْ طِبيبِ الّذي بحالِ الوِلَم ياسنا
ما خَبّركْ بصْواب گلبي؟ شْگال؟
صندوگ گلبي إمتلى مِنِّ الهموم أَشْكال
لا يَا لّئيم اللي ما تبالي
بِالزّمان إشگال
گلي الفرَج.. يا ساعَه يا يُوم
گلّي يا شهر يا سنه

وجع الحزن الذي يتصاعد محشرجا كأنه يجاهد بالأفلات من قيد ما تعززه عتمة المقهى الطيني وصمت ا لزبائن والسكون الذي ساد الشارع، الحزن الذي لا يشيخ في بلادنا والسكون الذي يظل يسكنه الخوف يطوفان في الظلال التي تتداخل و عتمة المقهى.

صمت الرجل ولكن الربابة ظلت في حضنه ، يده السمراء المتغضنة ثابتة كأنها تستعيد قراءة اللحن الذي تجتاز تنوعاته اصابعه الطويلة وتتسلل الى عمق الوجع فتئن الربابة بلوعة موحية ويتضائل العالم لينحصر في زوايا المقهى ثم يفيض الى الخارج ليأسر السكون المريب ويختفي الثعلب الذي كان يترصد عند نبات الحنضل الريان من ماء المطر ، الثعلب يخاتل قبرة تمرح بثقة متناهية وهو لا يمل من المطاردة التي يحكمها الخبث والحاجة.

قال فاضل : استاذ ، هل نتوكل على الله !

قلت بهمس : هل تقترح ان اعطي الرجل بعض المال !

تردد قليلا وقال : ربما يكون هذا ملائما.

فتحت كف الرجل الذي سحبها ببطئ ، وضعت بعض النقود ، لم يتكلم ، قال صاحب المقهى ـ شكرا، انه محتاج فعلا.

قال فاضل : حينما نعود سأشارك انا ايضا.

شعرت بشيء من الأحراج فأضفت بعض النقود ، عند الباب فاجئتني الشمس التي بدت لي غريبة بعد ان انسجمت مع المكان، وداخلتني الفة تواصلت مع

الصوت والعتمة وعمق الحزن ، الغيوم التي تسعى جاهدة ان تترك السماء للشمس، اما الأرض فتحاول ان تغطيها بظلال رمادية وهي تقترب الى الحد الذي يمكن ان تتوقف عند شجرة الصفصاف التي لا تحلم بالضوء بعد ان ظلت تسبح في صيف عار من الظلال ، الفتحات المنسية في حركة الغيوم المتسارعة تطل منها الشمس كصبية تلعب (الغميّضة) ترف جدائلها الشقراء بعناد مذكرة بكيلان ، طفل العائلة العبقري كما أسميه فتقول رؤى : آسفة بابا انت تفسده ، تأمره ان يلبس (البلوز) الصوف قبل ان يذهب الى الممر ليلبس حذائه ولكنه يتجاهل طلبها ، الحذاء اولا ! تصرخ به ، يقف في وسط المسافة بين غرفة الأستقبال والممر ، ناوليني البلوزة ، تصرخ غاضبة : تعال هنا ! قدمي تؤلمني ، هاتيها ، تعرف انه يتخابث ، ويحاول ان لا يتفذ الأمر كما تريد ، وعادة ما تنتهي هذا الفصل بصرخة من رؤى وقسما بانها لن تذهب به الى مدينة الألعاب.

قال فاضل : استاذ السيد عدنان يود ان يطمئن عليك.
ناولني الهاتف النقال
سأل عدنان عن رحلتنا ولم يرحب بتوقفنا في المقهى المهجور وأكد على ان افكر بجدية بالعرض الذي قدمه فالموضوع قطع مراحل جديدة بعد ان رحب الرجل الذي يدعمه بالفكرة وطلب ان اكون مستعدا لمناقشة التفاصيل عند عودتي وعلى ان ادرس على وجه الخصوص الحسابات البنكية الخاصة والضمانات التي تقدمها البنوك لضمان السرية ولم ينس ان يرجوني عدم التردد بالأتصال به اذا ما احتجت شيئا وقال وهو يضحك.

- أبو رؤى ،ليس اكثر من النقود اليوم في بغداد !

كانت ميسون تقول يجب ان تكون حذرا من العروض السخية ونحن مستورين فلا حاجة للمغامرة ، اقول لها ولكننا لن نخسر شيئا ! فترد بهدوء :بل نخسر ، انت تملك المعرفة والعلاقات، والدخول بمشاريع غير واضحة قد لا يفقدك المعرفة ولكنه سيقلص حجم علاقاتك اي انك تخسر رأس مالك الحقيقي فقد تحصل على فرصة حقيقية ولكن علاقاتك تكون قد انتهت ولا يريد احد ان يرد عليك !

- بالمناسبة اتصل بي مدير الفندق يعلمني ان جواد ابن عبد السميع قد اتصل بهم مستفسرا عما اذا كان لديه رقم هاتفك في كركوك لأمور هامة فهل ترغب

ان اعطيه رقم الهاتف مع فاضل ؟

- لا بأس.

كانت الأنحناءات في الأرض تزداد كلما تقدمنا في السير فيما تتكاثر على طول الطريق نباتات مختلفة بعضها طري وكأنه من موسم الشتاء الجاري فيما البعض الآخر يابس ولكنه ظل منتصبا بتحد شرس ينتظر موسمه.

اخرج فاضل يده من نافذة السيارة تاركا اياها كمصد للرياح الخفيفة والندية ، تنفس بعمق وقال : استاذ هذا الجو الغائم والندي وهذه البرودة التي تدخل في مسام الروح كم احبهما ، كنت اخرج مع ابي فجرا نخوض في مياه الهور الضحلة لننصب الشباك لصيد البط و كنت ارتجف (بدشداشتي) ولكني أصر على مرافقته أحمل بعض الطعام لننثره في موقع الشباك لأستدراج الطيور.

- هل كان يمتهن الصيد ؟

- لا كان معلما وكثيرا ما يكون دوامه بعد الثانية ظهرا فبناية المدرسة تشغلها ثلاث مدارس ومعدل دوام المدرسة الواحدة حوالي ثلاث ساعات يوميا اما ايام الأحتفالات، وهي كثيرة ، فان الدوام يتعطل تماما ، توقف عن الذهاب لصيد البط وعن الذهاب للمدرسة بعد ان كسروا له يديه بعد التقرير الذي قدمه مدير المدرسة، والذي قال فيه ان مجيد خويطر يروج لمفاهيم خطرة تتعلق بحركة التاريخ ، على اية حال هذا تاريخ ما اهمله التاريخ وقد انتهى .

صمت لحظة ثم قال بحبور : نحن الان على مشارف كركوك.

كانت المدينة التي تبدو من بعيد كتلة غارقة بلون ضبابي تتماوج فوقها خطوط ظلال الجبال التي تتجاوز الأشجار التي تركن اليها العصافير والحمام والأرانب ذات الألوان الرصاصية والسوداء ، كانت امي تحذرني من الذهاب اليها مساء فهي تعتقد ان الجن تترك المدينة حيث كانت تتخفى لتذهب الى الغابة لتقيم احتفالها الليلي وحينما كنت امر بالقرب من الأشجار يتملكني خوف مستفز وتتفتح كل مساماتي بأنصات مترقب خشية ان يسحبني الجن الى الغابة.

مطر خفيف بدأ بالسقوط فزاد من طراوة الهواء فيما تشوشت صورة المدينة

التي كانت في ذاكرتي تتمدد في نيسان ربيعا اخضرا وحياة تضج بالحيوية وتزهو بالوان ملابس ساكنيها وحلاوة صباياها التي تغرق في انوثة تتعرف على مباهج الحياة ، قلت لفاضل : الان يمكن ان تضع اغاني فيروز ، دار الشريط وارتفع صوت ناعم وعميق يتناغم مع المطر والنسيم وتمدد المدينة على طول الأفق بعد ان اقتربنا منها قليلا ... بايام البرد ، ايام الشتا ....

طلبت من فاضل جهاز الهاتف ، كان صدقي يرد بصوته المبحوح دائما والذي تشوبة رنة خوف يسكنه منذ السنة الأخيرة في الجامعة حين اعتقل لأكثر من سنة ثم اخلي سبيله
- صدقي ارجو ان تعطيني اسم الفندق والعنوان ؟

- ولكن هل تعتقد انك تعمل الصواب ! كل هذه البيوت التي ترحب بك وانت تصر على ان تعاملنا كأننا غرباء!

- يمكن الحديث بهذا لاحقا فانا متعب واحتاج الى الراحة

بعد ان دونت المعلومات قلت له:

- انا بانتظاركم بعد السابعة.

- سيكون عشاؤك معنا وبالطبع ضيفك معك.

الفصل السابع

كركوك في اواخر الشتاء سيدة في معبد آشوري تفتح ذراعيها باسطة كفيها فيما تترك شعرها للريح والمطر وتحدق في الكون بعمق ايمان ابدي تبتهل من اجل ان تهبط (عشتار) الى الأعماق وتنقذ (تموز) وتعيده من جديد الى الارض ليخصبها في مطلع الربيع. وتبدو القلعة من بعيد مجللة بالمطر كغيمة تحط على الأرض ، شعرت برجفة وكأنني أستكشف ارضا مسحورة لا أدري ماذا سيقابلني فيها مأخوذا بذكريات مخاتلة تتغير في ذاكرتي البعيدة وكأنها تهبط الي مع قطرات المطر لا تلبث ان تتلاشى تاركة ندى ورائحة غامضة تبعث فيّ خدرا يجعل من الصعب ان أحرك اناملي، ألمس شيئا ما لاتأكد انني ما أزال صاحيا ، قال فاضل : بعد دقائق سندخل كركوك ، تباطأت السيارة ثم ركنها فاضل الى حافة الشارع ، كان خطا طويلا من السيارات والشاحنات متوقفا فيما كان هناك جندي يلوح بقطعة قماش حمراء للسيارات القادمة للتوقف:

- ماذا يحدث ؟ سأل فاضل.

- لاشيء ، اشتباه بوجود قنبلة على الشارع، وبانتظار الأنتهاء من عمليات الفحص لسلامة المواطنين.

استمر التوقف لأكثر من ساعة ثم بدأ رتل السيارات بالتحرك فيما بدأ الخبر ينتقل كسباقات الرباعي في جري البريد ، كانت جثة كلب مفخخة !

اسراب من عصافير ملونة وزرازير سوداء تحط على العشب الندي وهي تصدر ضجة تعطي المكان حيوية ، بضع حمامات مكتنزة تتجول بصمت وفي السماء صقر بري صغير كان يحوم مستعرضا سلطته المطلقة يحرك جناحية ببطء محدقا في كل الأنحاء وهو يطوف بين الظلال وخطوط الضوء لشمس لا تترك لها الغيوم من فرصة لتمسح على سطح الأرض بموجات فضية من ضوء تذوب في قطرات المطر و ظلال شحنات الغيوم الرصاصية ، بدت القلعة كتلة واحدة حتى اسوارها كانت تندمج في الصورة فتبدو عصية على التسلق.

توقفت السيارات ثانية ولكن هذه المرة لكلا الجانبين ، السيارات الصاعدة الى كركوك والسيارات النازلة الى بغداد وفي منتصف الشارع كان رتل امريكي يتقدم بسرعة ، بعض الجنود لوحوا بايديهم وبعضهم كان يخفي وجهه تحت

نظارات سوداء معتمة ، على الجهة المقابلة اخرجت امرأة رأسها من شباك السيارة البيضاء وقالت : كان حمارا... اراد ان ينتحر فتوقف في وسط الشارع ولم يستجب لأية تحذيرات ... غريب ان يفكر بالأنتحار وكل هذا الموت في الشوارع ، سيارة (بيك اب) ضربته فتمدد وسط الشارع.
قال فاضل : وماذا حدث للسائق ؟
قالت المرأة : السائق خرج (صاغ سليم) ولكن مرافقه مات .. كان قد خرج من السجن منذ يومين واقنع سائق البيك أب بنقله مجانا فلم يكن يملك الأجرة.
قال الرجل الذي يبدو انه زوج المرأة فيما كانت شواربه السوداء كنبات بري يتمدد بكل الأتجاهات : بلقيس ادخلي رأسك وكفى ثرثرة !
قال فاضل وهو يلتفت نحوي : استاذ ، هل تعتقد انا بحاجة الى وكالة انباء ؟!
قالت المرأة ترد باحتجاج على زوجها : من المهم ان يعرف الناس السبب في كل هذا التأخير!
تحركت السيارات ثانية ، توقف المطر وبدت الغيوم وكأنها فقدت اصرارها على تعزيز موقعها في سماء كركوك فيما ازداد صخب الزرازير التي كانت تهبط على جانبي الشارع ثم تختفي تحت سيقان الحشائش والنباتات البرية وقد تجردت من الحذر وهي تتابع حشرات اطمأنت للخروج من شقوق الأرض الطرية او التحرك على العيدان الغضة.
كنا ننطلق الى الحقول على جانبي نهر (الخاصة) نجمع حشرات صغيرة بأرجل قصيرة سوداء وغلاف برتقالي منقط بالأسود، وبعد ان نمل من اللعب معها نسطو على مزارع (الرقي) ، نحفر تحت سياج الأسلاك الشائكة وندفع باجسامنا الصغيرة ، في البيت كان (الرقي) مقطعا، لونه الأحمر المغري لم يكن اكثر الحاحا بدعوته من المسروق ، الخوف، الترقب ، طعم الفاكهة الفج احيانا لعدم اكتمال النضج حالة لا يمكن مقارنتها بتناولها على التخت في البيت!
قال فاضل : نحن ندخل كركوك الان ، هل يمكن ان تعطيني العنوان ؟
القى نظرة سريعة على القصاصة التي كتبت فيها اسم الشارع والفندق واعاده لي، وحين سألته ان كان من السهل الوصول الى الفندق قال بانه يعرف كركوك كما يعرف راحة يده وانه يمكن ان يستدل عليها وهو مغمض العينين فقد عاش طفولته هنا قبل ان يعود الى بغداد ، صمت بحزن ولكنه كمن يطرد شبحا لزم صمتا قلقا ، ان لا تعرف طريقك في مدينة كبيرة يعني ان تظل تدور طويلا وانا الذي تركت كركوك منذ اكثر من ثلاثين سنة بين بغداد والنمسا لا اصلح ان اكون دليلا ، ندخل المدينة كما توقعت في الثالثة عصرا ، شعرت برجفة خفيفة فقد كانت المدينة ما تزال تتمسك بهدوئها العميق وبشكلها

الرصين الذي يحمل مشاعر حميمية من الحب ، بعض المقاهي المفتوحة ما تزال تجمعا لرجال اعرفهم بعضهم مات منذ زمن حين ذهبوا الى الحرب بخوف المحكوم بالأعدام، وبعضهم غادر المدينة التي لم تحميه طيبتها المفرطة ولا رائحة الورد الذي يتسلق جدران البيوت فيجمعه الجيران في مزهرية رخيصة من الفخار، المدينة تعبر مفاصل ذكرياتي وانا اتطلع الى تغير السحنات والملابس وحركات الأيدي ونظرات النسوة العابرات في الشارع ، نظرات يسكنها خوف يلبس الحداد بعد ان توسعت (مقبرة الشهداء) لتأكل البساتين وحقول الخضرة وبيوت الفقراء وتتمدد باتجاه المدينة وكأنها تعلن عن نفسها بإصرار بارد.

الفندق الصغير الذي كان يقبع في ناصية الشارع والذي كانت بوّابته تصدر أنينا موجعا حينما فتحها رجل تفوح من ملابسه رائحة التبغ وتغيم عيناه بنزيز عكر ، الفندق كان نظيفا والصالة الصغيرة تشي بأن من رتب اثاثها يمتلك حسا فنيا مرهفا فقد كان التناسق في الألوان والمعروضات من تحف تحمل ملامح عصور مختلفة ، غاية في الموائمة مع الضوء الذي تم الحرص على اخفاء مصدره كجزء من لمسة فنية رقيقة.

بعد ان رتبت حاجياتي في خزانة الملابس، اخذت حماما سريعا وتمددت على السرير باسترخاء لذيذ، ولكني تذكرت ان علي ان اعطي رقم هاتف الفندق لأدارة فندق بغداد فقد يحتاجني عبد السميع او جواد، كان على الخط مدير الفندق بصوته الواثق ومخارجه القصيرة والحادة:

- تفضل استاذ !

- معك فالح ، غادرتكم هذا الصباح

- ولو ! اعرف ذلك تفضل

- اود ان اترك رقم هاتف الفندق في كركوك فقد يسأل عني بعض الأصدقاء.

- حسنا سأدونه.

اعطيته رقم الهاتف ورجوته ان يعطيني جانيت.

- جانيت !... لا بأس.

كان صوتها قلقا وكأنها تعاني من آثار سهر مضن ، قالت بانها وجواد سيغادران بعد ثلاثة ايام وقد قررا الزواج وكان بودهما ان اكون حاضرا قلت سأحاول وسألتها ان كان هناك ما يمكن تقديمة ، كانت مترددة ولكنها قالت لا فنحن قد رتبنا كل شيء ، خمنت انهما بحاجة الى بعض النقود لتأمين اقامتهما في عمان، اكدت عليها ان لا يغادرا قبل عودتي ، قالت نعم استاذ ، لقد فهمت ما ارمي اليه ، شعرت براحة ، عدت ثانية لاسترخائي على السرير، كانت شهيناز على التلفون ، قالت انها في الصالة مع زوجها وهما بانتظاري ، طلبت

من فاضل ان يرافقني ولكنه اعتذر قال بأنه لامحل له في اجتماع عائلي شديد الخصوصية سيما وان سيارة اقاربي في الأنتظار.
بيت العائلة كما هو، الباب الحديدي الكبير والممر الطويل على جانبيه شجيرات تعاني من اهمال ، شجرة الزيتون على السياج الجانبي هي الوحيدة التي ما تزال شديدة الثقة بنفسها بحيث لا تلمها اضمامة العين فهي تهبط الى حديقة الجيران ، الشرفة الأمامية عليها آثار اطلاقات نارية واضحة ، وجه ابي كان على الحائط بنظرته الحازمة والصارمة، اما اخي نجدت فقد كان مستسلما على الزاوية شريط اسود ، الصغار كانو بالكاد يضبطون انفسهم وهم يحدقون بي ، اذن هذا هو العم القادم من النمسا ! اندفعت اصغرهم ، عمو اريد الشكولاتة ... امي قالت اذا كنت مؤدبا في استقبالك فانك ستعطيني اياها ، نهرته شهيناز وابتسم صدقي ووقف الطفل حائرا، كنت احمل علبة كبيرة من (الملبس) ، فتحتها واعطيته حفنة ، الآخرون كانوا متحفزين بانتظار دورهم ، وزعت العلبة وساد هرج في الصالة ، كنت افتقد هذه العفوية ، كانت العائلة كلها تحضر للترحيب وللتعرف على موقفي من مسألة الأرث ، القادم من النمسا لن يكون بحاجة الى ان يقتسم معنا ... في اوربا انهم يحصلون على النقود من الحائط ، تضع بطاقتك وتطلب ما تحتاج اليه .. هذا ما سمعته من بعض الأصدقاء قبل سفري ..
كانت شهيناز تفرض حضورا مرهوبا ، في عينيها دائما نظرة توبيخ جاهزة لترميها ، كان ابي يقول حفيدتي هذه تصلح للقيادة وكانت هي تقول : جدو اريد ان اكون قائدة طائرة !
- عمي نحن جميعا نكن لك احتراما كبيرا ونأسف لأنا حملناك مصاعب السفر، ولكن للضرورة احكام ، عمي احمد لم يحضر ولكنه وكّل عمتي أنوار بأن تنوب عنه وهو يعتذر منك ، انه منذ فترة منقطع عن العالم معتكف في بيته، وكل الذي يشغله انتظار حلول الساعة ، يمكنك غدا بعد الظهر ان تزوره ، لن نتحدث بأي من امر العمل اليوم لأننا سنكرسه للأحتفال بحضورك، ولكن غدا عند الساعة الخامسة مساء سيحضر الى البيت موظف الشهر العقاري الذي هو بالمناسبة صديق زوجي صدقي ، وبحكم الثقة وافق ان ندفع له ورقة واحدة لقاء قيامه بانجاز كل المطلوب خارج الدائرة ، كل الأوراق الرسمية تم اعدادها من بيانات سابقة لك عند المرحوم ابي ... لندع التفاصيل .. والان حدثتنا كيف هي الحياة في النمسا.
كنت ارقبها باعجاب فقد كانت قادرة ليس على الحديث ولكن على ان تنتقل من موضوع الى آخر، وان تنهي الحديث بطريقة متميزة وفي عينيها دائما نفس النظرة التي تحملك على الشك في انها جادة، فقد كانت ترشح باملاءات تهكمية

وبشيء من التحدي ، صدقي كان مهندسا ناجحا في تفاصيل مهنته، ولكنه لم ينجح في ادارة المصنع الذي كان مديره ، قال انه يفهم في المحركات التي تستجيب له وتكشف عن اسرارها بيسر وهو يبحث في امتناعها عن العمل، ولكنه لايجد القدرة على فهم الاعيب الموظفين والعمال التي كان يجدها اما صبيانية او ناتجة عن روح شريرة يصعب التعامل معها ، قال بانه طلب ان يكون مديرا للقسم الفني.
حينما كانت شهيناز تتكلم ، كانت اختي الصغرى ذات العينين السنجابيتين تنصت بلا مبالاة مفتعلة، وقد تحول وجهها المستطيل الى كتلة صلدة شدت عضلاتها بقوة حتى اني اشك في ان شيئا ما قد يمكنه ان يخترقها ، كانت امي تقول هذه صفعها الشيطان ولكن حقدها في قلبها فهي جبانة لا تستطيع ان تؤذي احدا! اختفى زوجها في هجوم شنه الجيش العراقي في الثمانينات على القوات الأيرانية في قاطع ديزفول، ولكنها لم تحزن عليه كما انها لم تفكر بالحصول على مستند شرعي كي تتزوج ثانية ، ظلت صامتة تحتل الطابق الثاني من البناية التي نملكها (اعني العائلة) في الشارع التجاري، واهتمت بجمع الأيجارات شهريا من المستأجرين والأستيلاء على نصفها ولم تعترض شهيناز ، كانت تقول ان عمتي وصية على اخويها وكانت تقصدني واخي الآخر، ومنذ زمن كنت قد قررت ان انسى ان لي حق في املاك العائلة ، لا يعرف احد كم لدى اختي او لماذا تحرص على (الأدخار) الأجباري وهي عادة شحيحة في مصروفها وليس لها من اصدقاء ولم يلحظ احد انها اعطت طفلا في العائلة قطعة حلوى عند زياراتها النادرة لهم.

كان العشاء كالعادة ثقيلا ومتنوعا ولكني وجدت في الدولمة بدبس الرمان طبقي الشهي ورفضت ان اتناول قطعة من فخذ الخروف المحشي الذي كان (صدقي) يلح على انه افضل ما تطهيه شهيناز.
ونحن نتناول الشاي قالت شهيناز : ارجو ان تقنع صدقي ...
قاطعها صدقي : لقد انتهينا من الموضوع !
قالت : لم ننته بعد ، لماذا لا تعترف بانك (حنبلي).
قال : نحن ننظر من زاويتين مختلفتين ، انت تعتقدين بأن (وجدي) قدم مقترحه كخدمة ومن باب تحقيق مصلحة لنا، وانا انظر الى المقترح على انه محاولة لتوسيع الدائرة وافضل ما يصف الرغبة وراءه مثلٌ سمعته مرة (ضاع ابتر بين البتران).
ضحكت ، قال صدقي ، لنسمع العم فالح الموضوع وانا راض بحكمه، قالت شهيناز سأعرضه انا! قال صدقي لا مانع ، قالت شهيناز : تقدم وجدي باقتراح

ان يتوسط لصدقي للعمل في المنطقة الخضراء مع القوات الأمريكية كمستشار براتب شهري عشرون الف دولار.
قال صدقي : اولا، الوظيفة مترجم ولكن لسبب ما يدعي العاملون انهم مستشارون، وثانيا: وجدي يعمل معهم هو وابن عمه منذ اربعة اشهر وهم يرغبون بتوسيع الدائرة ليتفادوا البقاء وحدهم ، وجود آخرين يخفف من الخطيئة ،أليس كذلك ؟
تذكرت العرض الذي قدمه عدنان ، لم أجد رغبة في مواصلة الحديث .
قالت اختي الصغرى: انتم تخوضون بمواضيع جانبية وحتى لم تشيروا الى ما سنفعله غدا مع موظف السجل العقاري ؟
بدت عيناها السنجابيتان ككرتين تسبحان في عتمة لم يسلط عليها ضوء وعلى شفتيها ابتسامة موحشة كتكشيرة محكومة بنوبة غضب ، كنت دائما اجد فيها كائنا غريبا عنا ، تنزوي بعيدا وترمقنا بخوف وكأنها تتوقع ان نقوم بايذاءها، وفي الليل تكز على اسنانها وهي غافية وكان ذلك يسبب لي قلقا ، قالت جارتنا مرة ان الطفل الذي يكز باسنانه ينذر بموت اخيه الذي يسبقه، رغم مرور كل تلك السنوات فاني لا زلت في اعماقي اشعر بعدم الأرتياح وانا اتذكر ذلك.
قالت شهيناز : عمتي ! لقد شرحت لك الموضوع للمرة العشرين، وعمي فالح هو الوحيد الذي لم يطلع على التفاصيل ، حسنا.
قالت ذلك بنفاذ صبر فيما اربد وجهها الكمثري الأبيض ورفعت خصلات شعرها الأسود التي اندفعت الى وجهها من الجانبين وتابعت:
غدا سيحضر المخمن وهو خبير بالأسعار وسيحدد سعر السوق للبيت الكبير والعمارة التي تسكنين في طابقها الثاني والمزرعة والدكاكين الثلاثة في السوق، وعلى ضوء الحصص الشرعية سأدفع للجميع قيمة نصيبهم ويتم التسجيل باسمي.
قالت اختي : بشرط
قالت شهيناز : نعم قولي كل ما عندك
قالت اختي : ان ابقى في سكني دونما اجار طيلة حياتي
قالت شهيناز : لا مانع ولكن بشرط ايضا
- ما هو؟
ان تخلي الطابق اذا ما قررت البيع وعلى ان ينص على كل هذا في العقد !
صمتت اختي وكأنها تقلب الموضوع في ذهنها ، شعرت بانها وحيدة ، وان مجال المناورة امامها قصير وانها مجبرة على الموافقة، نظرت نحوي ، كنت اتابع المشهد بشيء من الترقب لمسار النتائج ، كانت شهيناز تتقدم بخط ثابت ولديها كل الأسلحة اللازمة اما عمتها فقد كانت محاصرة مثل دجاجة تبحث

عن مكان لوضع بيضة ، تنحشر مسببة ازعاجا.
قالت شهيناز : والان جاء دور الحلويات ، اعلم انك تحب الكرميل
قلت : كان زمان ، عمك الآن ما عاد شابا.
قالت : بلا حسد انت ماتزال في عنفوان الشباب
قلت : شكرا ولكن بلا كرميل.
من الواضح ان شهيناز تمتلك سلطة واسعة على البيت فقد اختفى صبيتها الثلاثة بهدوء ولم اسمع ضجيجهم او عراكهم الذي هو في الغالب سلوك الصغار المتقاربي الأعمار، قال صدقي :- ساوصلك الى الفندق وان احتجت لأي شيء فلا تردد بالأتصال.
قلت : - شكرا للمرة الثانية ولكن هل تعتقد ان بالأمكان ان نزور بعض اجزاء المدينة؟
- لا اعتقد ان الوقت مناسب الآن فالظلام بدأ يسترخي على المدينة والمتصيدون في عتمته كثر ، ربما سنمر بطريقنا على باب البنات ومن ثم القيصرية ، ستراهما وانت في السيارة!

تذكرت اني كنت مع بعض الصبية وكان الوقت مساء نلعب عند عمود الكهرباء حينما اعلن كاكة فرج انه شاعر ، الحجنا عليه بان يقرأ لنا ما كتبه : "سلام الله ياباب البنات .... على تلك الصبايا الفاتنات"، من يومها توّج كاكة فرج شاعرا في مدرستنا المتوسطة وكنا نناديه بالشاعر الصغير فقد عبّر عن ما في دواخلنا ونحن نقف مساء كل يوم عند الباب ترقب الصبايا وهن يدخلن سوق القيصرية او يخرجن منه في طريقهن الى القلعة.

قال موظف الأستعلامات وهو رجل دقيق الملامح يرسم ابتسامة مجاملة انيقة تمتد الى كل وجهه ويبدو شاربه الرفيع خطا مستقيما شديد السواد.
- استاذ لديك ثلاث رسائل.
سلمني قصاصة ورق عليها ارقام الهواتف، كانت رؤى تطلب ان اتصل بها لأطمئنها على احوالي فاخبار الفضائيات العربية مقلقة، أما الثانية فقد كانت من جواد يقول ان لديه اخبار سارة تتعلق بقيام دار نشر عربية بطبع مجموعته القصصية، وكانت الثالثة من عدنان الذي يعتذر لأنه يتصل على الفندق لأن فاضل قد اغلق جهاز هاتفه ، يطلب ان افكر جديا بالعرض وهو لايريد ان يكرر التأكيد على ان لدي موعد هام في بغداد.
قلت لجواد أن يحجز لي خمسين نسخة من مجموعته مدفوعة الثمن واجور البريد الى النمسا، ويمكن ان يتفق مسبقا مع دار النشر لهذا الغرض كما طلبت

منه ان يضع روايته (مذكرات جندي لم يحارب) على سي دي، لأني سأطبعها له في عمان وسأدفع له حقوق التصرف بالرواية، كنت افكر بمساعدته وجانيت دون ان اتسبب في احراج لهما ... قبل ان اغلق الهاتف خطرت ببالي فكرة ، قلت لجواد: أقترح ان تنهي عقد زواجكما قبل السفر
تردد قبل ان يجيب قلت : لتكف جانيت عن ابتسامتها الماكرة !
قال : شكرا ، لقد نفذنا وصيتك بأثر رجعي ! ولكن جانيت مصرة على ان تسمعك رأيها.
قالت : استاذ انا الان مؤمنة اكثر من اي وقت مضى انك رجل كشف عنه الحجاب! كيف رأيت ابتسامتي ! صدقني كانت تعجبا.
كانت المولدة في الفندق افضل من مثيلتها في بغداد، فقد كان الماء الحار متوفرا كما ان الغرفة مدفأة كفاية بحيث لم احتج الا الى شرشف ابيض لا تزال تفوح منه رائحة صابون معطر .
هبط الليل كالعادة سريعا وانقطعت الأصوات في الخارج الا من هرير قطط غاضبة كانت تتقاسم فضلات المطعم في الجانب الخلفي حيث تتكدس النفايات وتنبعث منها رائحة تفسخ المواد العضوية العطنة، عيناي تغرقان في موجات أرق ممض مفتوح على مجاهل مربكة مرصوفة بكآبة عميقة تمتد الى هاوية بلا قرار.

الطريق الطويل والضيق يزداد عتمة، وتصفر على امتداد فضائه الموحش ريح باردة تزيد من شراسة الأحساس بالخوف والوحدة ، كنت على يقين ان عيون تتلصلص خلف الطابوق الكابي ، بلونه الأحمر الباهت وانها تسخر مني ، عيون بالوان متغيرة تتعاقب في تتابع متواطئ مع احساسي المتنامي بالعزلة ، ولكن عيني (أنوار) الأكثر مكرا ، كانت تفح كافعى قطع ذنبها : سوف لن تنسى اني اختك! شعرت باني اسير الطريق الذي يمتد بلا نهاية وان الشعور بالوحدة يعصرني حتى اكاد اختنق ، ضجيج بدأ يتعالى والرجل الضئيل الذي يحفر كان منشغلا يتحدث بهمس مسموع، وشعره الطويل يغطي وجهه، اذانه فقط هما اللتان كانتا تنتصبان كشراع لا يستقر بسبب الرياح المتقلبة ، كانت الحفرة مربعة والرجل يغني : - ".. مطر .. مطر ياحلبي .. عبّر بنات الجلبي". . يا جلبي يابطيخ المطر الذي لايترك لي مجالا للرؤيا لا اريده .. يسقط المطر .. قهقه بصوت حاد .. هذا ما تعلمناه في المدرسة .. يسقط الأستعمار .. وسقط المطر على رأسي وتعريت كي اتخلص من ثقل ملابسي يسقط الأستعمار ... وسقط الأستعمار في شوارع بغداد ... التفت نحوي بنظرة حادة : انت لماذا سرقت اسم ابني ؟ لم تتركوا لي شيئا ، قل لي هل لازالت

جيكور خرائب؟ ونخيلها ، هل مازال يبكي الموت الذي تجاوزه ، مسحت على رأسه وقالت له غدا ستملّ من الموت ،، ستأتيك التخمة وساعة السحر ستكون شاهدا اخرس بعد ان تشبع من النسيان ، قال: هنا ولدت وهنا سأموت ، ابتعد ايها الرجل!
عاد الصمت عميقا فيما تكاثفت العتمة ، أتلمس الجدار ولا أتبين قدمي ، ليس غيري ضائع بين الميلاد والموت مرمي في عيون النسيان العمياء .
صوت خطى خلفي ، خطى عجلة مرتبكة الجنون وحده يمكن ان يصنع مثل هذا التردد المتلبس بالفوضى ، يد مرتعشة ولكنها قوية امسكت برقبتي ، اختنق ولكني لا استطيع ان أصرخ الرجل الضئيل العاري وقف أمامي يرتجف من الغضب في عينيه كمية هائلة من الحقد ، شعرت اني ارتجف رعبا.

- صديقاك سرقا كفني ! قد اتنازل عن كل شيء حتى جسدي لتأكله قطعان النمل التي ارسلها الله ولكني لن اتنازل عن كفني.

- كنت وحيدا ... انت حدثتني ولم يكن معي احد
- اعرفكم ، كلكم مخادعون ، كفني ؟!

- سأموت ولكني سأظل نخلة تعطي كل عام رطبا ، هل تشهيت الرطب ، لن يبللني التراب ولكن المطر سيغرق وجهي بظلال الوهم الذي كان يتمدد في فضاءات وجودي الذي سرق كفنه اصحابك!
كنت ارجوه ان يتركني فعيناه تبعث قشعريرة في جسدي وتعيدني من ابعاد الغياب وكفه الباردة باصابعها الدقيقة المعروقة تسد منافذ الأمل بأن الحياة ستعود من منفاها لتقتحم الظلمة والريح وتلغي وجود الرجل العاري.

ضوضاء بدأت تدق في جوانب الطريق ، قال الرجل العاري لقد عادت الكلاب ثانية ! أهرب فقد تأكلك انت ايضا! والضباب لن يترك لك فرصة في ان ترى عيونها ، لا تصدق الضباب الشاحب الضعيف، فهو لئيم الى الحد الذي لن يجعلك تقدّر كم هو مخاتل، قلت لهم تموت الغابات بصمت، ولكن رائحة العفن الذي تطلقه هو الذي يعلن عن موتها ، نعم الموت وليس امرا آخر من يدخل الى الغابات ولكنه يسكنها الى الأبد او يأخذها معه ، اهرب يا رجل! انظر حتى خيالي قد تركني ، انا بلا خيال! ... في عتمة الضوء الشاحب كنت اراه يحدق في الأرض يبحث عن ظل لخياله المتخفي وفي عينيه الغائمتين بالملح

الكثير من الكلام ... قال بان الحروف تقف على حافة الأنفجار لأنها ضاقت بالتوتر الذي قيدها منذ ان اصر النبي نوح على ان ينقذ من كل زوجين اثنين ولكنه ترك الشاعر في العراء تأكله العزلة وسباخ البصرة.
تركته ابحث عن منفذ للخلاص ولكن صوت الكلاب كان اشد وضوحا وعدوها يسد الطريق، اشعر ان يدا تضغط على رقبتي والوحشة الشرسة تدخل عيني بقسوة ، انا منعزل والعالم بعيد وسأموت كفطيسة في احداق النسيان !
صوت عدنان كان واضحا لا ادري من اين ولكني كنت اسمعه ، كانت لهجته مسترخية يحاول ان يشحنها برنة صدق لتكون مقنعة ، ليس اكثر من النقود في العراق اليوم ونحن بحاجة الى خبراء وانت واحد منهم ، ليس في الأمر خطورة ولا شبهة، انه مال حلال وثلثي الرزق في التجارة لا تقف مترددا مد يدك وستخرج من هذا النفق
- صدقي يرفض ان يعمل في المنطقة الخضراء؟
- ليس هذا مهما.
كان الطرق على باب غرفتي قويا ، هذا ما تأكدت منه وانا امسح العرق الذي يبلل وجهي والغرفة تغرق بضوء فضي باهت والتلفاز الصامت يعرض جوانب من احداث الأمس في البصرة.
قال فاضل : صباح الخير ، لقد شعرت بالقلق لتأخرك !
- كم الساعة الان ؟
- العاشرة
- شكرا لأنك ايقظتني ، عشرة دقائق وأكون في الصالة.
- المطعم يتوقف عن الخدمة بعد العاشرة فهل تفضل الأفطار خارج الفندق أم اجلب لك شيئا من السوق؟!
- ثانية اشكرك على اهتمامك ، افضل ان نتناول بعض الطعام في المدينة.
- اذن انا عند السيارة بانتظارك.
كان النهار رائقا ، غيوم متفرقة تخاتلها شمس مسترخية بشيء من الغنج وهي تغسل اشجار الورد في مدخل الفندق فتبدو قطرات الماء على الأوراق الملونة ، زاهية ببريق كرستالي فيما تنبعث رائحة شذى معطر بالندى ، كانت ميسون تقول وهي تضع اضمامة الزهور في الفازة الجميلة من كرستال النمسا : فالح الزهور هنا بلا رائحة ، انها ديكور جميل خال من الروح ، في بغداد يملأ الورد الجوري الصالة بعطر منعش يسكرني وانا أغير ماءه كل صباح ، الروح هي محرك الكون.
قال فاضل : ما هو برنامجنا اليوم ؟
- أولا لنذهب الى مطعم شريطة ان تكون واجهته على الشارع فانا ارغب في

رؤية الناس هنا ، انا بحاجة الى الشاي اولا، وبعده فنجانا من القهوة التركية ، أما الطعام فاتركه لك لأني لا زلت اعاني من عشاء ابنة أخي ، كان ثقيلا والأصرار على الأستزادة المصحوب بالرجاء أن أتذوق هذه القطعة من لحم خروف عراقي لم يتناول العلف الصناعي قد اتعب معدتي التي تعودت نظاما آخر ، على أية حال ، بعد ذلك سنقوم بجولة حرة في المدينة التي ما تزال معالمها كما هي ، في المركز على الأقل واترك لك، ما دمت خبيرا بدروبها ، حرية القيادة، المهم ان نعود قبل الثالثة مساء الى الفندق لأرتاح قليلا ففي الرابعة سيحضر صدقي لأصطحابي الى بيتهم وتكون انت حرا حتى صباح الغد.

- حاضر استاذ ولكن هل سنغادر غدا ؟
- ربما ، كل شييء متوقف على انجاز ترتيبات التسجيل العقاري!
- على بركة الله.

الفصل الثامن

قال فاضل : من اين تريد ان نبدأ ؟

قلت : القيصرية اولا ولكن ليس قبل الشاي!

قال : هناك مقهى صغير امام السوق عند باب البنات.

شعرت بفرح طفولي يداخلني ، صعدت الى السيارة فيما كانت الشمس المعابثة تحتل مساحة كبيرة من سماء باهتة الزرقة ، اندفع بضعة اطفال عائدين من مدرستهم وهم يحدثون ضجيجا اضفى على الشارع حيوية ومسح طابع الكآبة المخيم على الفضاءات المفتوحة والذي تعمّقه رتابة صوت حزين متوالي برنين موحش لنسوة يقطعن الشارع من امام الفندق وهن يثرثرن مرة واحدة بحديث ليس من السهل تبينه

كان الشاي بطعم حبات (الهيل) لذيذا ومنعشا ، امامي كانت القلعة تنتصب يلفها غموض يبعث في نفسي شعورا معقدا ليس من السهل وصفه او الدخول في تفسير له ، شعرت انها قد شاخت وبدلا من ان تضمر وتتقلص ترهلت أو ربما ان ما ترتديه هو الذي يعطي هذا الأنطباع فقد فكرت انها ترتدي وشاحا فضفاضا اكبر من حجمها.

من الواضح ان مزاجا عصبيا يتحكم في سلوك الناس فقد كان سائقوا السيارات المارقة بسرعة لا يتوقفون عند الأشارات الضوئية الحزينة التي ترسل ضوءا كابيا مغيضا ، حسنا،ان قدرة عليا هي التي تنظم السير بحيث تمنع وقوع حوادث مفجعة ، كما ان قادة المركبات لا ينفكون يستعملون مزاميرهم دونما سبب وكأنهم ينفسون عن غضب مكبوت بهذه الأصوات المرتفعة.

مجاميع منعزلة تجتاز الشارع لتصعد عبر باب البنات او الهابطة من القلعة، كانت مختلفة الملابس واللهجات حتى ان سحناتهم التي تتوحد بنظرة قلقة وحذرة كانت تتباين ويمكن الحكم على انتماءاتهم بسهولة ، بدت لي تلك المجاميع الصغيرة غيتوات مغلقة ومنعزلة ، شعرت بحرقة تمتد الى قلبي ، لم تكن هذه مدينتي ربما هي اختلافات السنين ، كم قضيت في الغربة؟ حسنا ربما

خمسة عشر عاما ! ولكن ما فكرت به ، ان هذه الأختلافات ستكون ايجابية ، ستجعل الناس اكثر انسجاما واكثر تسامحا وبالتأكيد اكثر رغبة في العمل من اجل تطوير المدينة ، الشوارع كما هي، والأرصفة تشكو اهمالا، وواجهات المحال المرصوفة الى بعضها صامتة فقدت البهجة منذ زمن !

قال فاضل : اذا شئت ندخل القيصرية
ونحن صغار كنا نحفظ عدد ايام السنة واشهرها وايام الأسبوع من مكونات القيصرية ، نسأل بعضنا كم عدد ايام السنة ؟ ونجيب بصوت واحد ونحن نتسابق في الصراخ ثلاث مئة وخمسة وستون يوما ، نعم عدد المحال في القيصرية.

في جوانب المدخل نبات العوسج الصحراوي يحاول ان يتمدد الى أزقة السوق يستفيد من عدم المبالاة التي يتمتع بها ، بضائع مختلفة مرمية دونما عناية والباعة تطل من عيونهم نظرات استياء لسبب مجهول حتى انهم يتعمدون الصمت وهم يتلقون رجاء المشترين ! شعرت بان هناك ازمة حقيقية ، ماذا اسميها ؟ ربما ازمة في الذوق العام ، البائع ينظر بازدراء لمشتر يرتدي ملابس اخرى ، ينظر نحوه بشيء من الغضب ايضا ، شيء ما قد تغير في عمق احساسيس الناس هنا وهم لا يبذلون اي جهد لأخفاء هذا التحول ، قال (آزوري) مرة ونحن نتحدث عن الموروث الثقافي ، الشرقيون عموما ليس في مقدورهم اخفاء مشاعرهم وهم عادة يفخرون ان ما في قلوبهم على السنتهم ! هنا في الغرب تظل ابتسامة متواطئة تلقي ظلالا على الوجه وكلّما كان الشخص (نقيا في غربيته) كلّما كانت الظلال كثيفة بحيث لا تتبين ما يخفيه ، تذكرت حينها المحققة ذات العينين المشعتين والأبتسامة العذبة واللهجة الودودة وأمنّت على كلام (آزوري) قلت له نعم انت محق.

- لنخرج !
شعر فاضل بانزعاجي
- أمرك استاذ ولكن الى اين ؟
- لنتجول بالسيارة في المدينة ، اعتقد ان لدينا وقتا كافيا رغم حواجز التفتيش !

الأحياء منعزلة حوتها مظاهر بدت اكثر خصوصية ومغلقة ، كانت الأعياد في المدينة مهرجان للفرح تختلط فيه الأزياء وتمتزج اللهجات واللغات، لا تحمل العيون وهي تتبادل النظرات الا مودة طافحة وتنزلق من الأحاطة الشاملة الى

شيء من عدم الأكتراث .

صبية يلعبون الكرة ويحاذرون ان تخرق جدار العزلة لتقع في الجانب الآخر ، جنود بكامل اسلحتهم وراء جدران اسمنتية ، سيارت الشرطة تندفع بكل اتجاه وهي تطلق صوتا متقطعا مبحوحا واضواء تترقص على السقف المعدني الأبيض ربما لتأكيد التواجد ولتطمين الخطى المترددة القليلة لكائنات تصر على ان تظل حية وهي تعبر جدران الخوف التي تسد الشوارع لتأمين حاجة ما .

بدت كركوك مدينة اخرى تحمّلت عقابا اكبر من احتمالاتها فهي كئيبة ومنقبضة، حتى الذكريات اخذت تبتعد وكأنها تسقط في هاوية تتناسل فيها شياطين من عصور سحيقة ، لم تعد المدينة التي تصعد فوق ضوء النار الأزلية ، المطر لم يزح الغبار من اجوائها ، ظل معلقا يعطي ضوء الشمس لونا عكرا كأنه ماء الترعة الذي نمت فيه حشائش سامة بفعل ركود ماء الفضلات الذي يهبط من القلعة وتنبعث منه روائح نتنة.

- هل تتوقف قليلا ؟

ركن فاضل السيارة الى الرصيف ، لم يلتفت نحوي وشعرت انه يقدر تماما حالتي ، على الرصيف بائع صحف بلل بعضها المطر.

- هل ترغب بصحيفة معينة؟

- لا ، سأطالع العناوين اولا.

تابعت وانا اتناول اول صحيفة على الحامل الخشبي

- حينما كنت في الثانوية كان ابي يشتري صحيفة مليئة بالشتائم والتعريض بالسياسيين ، وعندما استغرب ذلك يقول هذه هي الحقيقة الوحيدة في الصحف ، السياسة فن ملتو لا يوصلك الا لدهاليز تنعدم فيها الرؤية ... والان اجد ان بعض الصحف ماتزال تتحدث عن الحقيقة !
لم يردّ فاضل ولكن البائع بدا غير مقتنع .
- كلما جاءت امة لعنت اختها

- أو اخيها
لافرق استاذ.
اشتريت ثلاث صحف بغدادية ومجلة تصدر في المدينة ، الوان الصور التي تنشرها بدائية والتعليقات اكثر صبيانية من مجلات الأطفال ، كانت الجريدة الأكثر اهتماما بكركوك (الصباح الجديد) تتناول موضوع انتخابات المحافظات الذي كان مدار حديث الناس في المدينة لأنه يتعلق بوجودها كمزيج متجانس.

- نعود للفندق!
قال موظف الأستعلامات ان ابنتي اتصلت مرتين.
كانت (رؤى) على الهاتف النقال في السوق فالضجة حولها مختلطة وبعض الذين حولها يحاولون ان يتحدثوا همسا ، اسمع فحيح الكلمات ، قالت:
- نحن قلقون فالأخبار تتحدث عن مشاكل في الموصل ، فؤاد يرجوك ان تكون حذرا وان تسرع في انجاز اعمالك ، ولكن قبل ذلك ، اعتقد انك اسرع مما اعرفه ، اتصلت بفندق بغداد، ردت علي فتاة بصوت ناعم موح بانه يعرف كل شيء عنك ، قالت اهلا سيدة رؤى يسرني اطلاعي على ديوانك الشعري ..
جيد ان اكون قد خدمتك ! قلت لها لا تتخابثي ، الفتاة عاملة في الفندق وهي شاعرة، اولا ومخطوبة ثانيا واصغر منك ثالثا ، هل ترغبين بلائحة ايضاحات اكثر ، قالت لا يكفي هذا الآن ، تحياتي الى اولاد عمي.
حين سألت موظف الأستعلامات عما اذا كنت استطيع ان اشتري باقة ورد نظر نحوي بشيء من الأستغراب ، الورد في كل حدائق البيوت !
- ولكن ماذا استطيع ان اقدم كهدية عند الزيارة؟
- علبة حلويات
- حسنا انا بحاجة الى علبة مناسبة وان تغلفها بورق هدايا
- هل ترغب ان تكون الحلويات عربية أم أجنبية ؟
- أي شيء شرط ان يكون مناسبا
كنت مسترخيا في غرفتي حينما اتصل بي موظف الأستعلامات ليقول ان الهدية جاهزة وان السيد(صدقي) في انتظاري.
قال صدقي : آسف للتأخر فقد حدثت مواجهات في شارع (تسعين)، اضطر رجال الأمن الى غلق الطرق والتدخل لأيقاف التدهور الى الأسوء، لم تعد المدينة آمنة والأمور تزداد تعقيدا وكل طرف من المجموعات الثلاث الكبيرة يريد الضغط باتجاه تحقيق السيطرة ، اعتقد انه دون توافق واضح سننحدر الى

حرب شاملة وستكون كركوك القنبلة التي تهدد العراق بالدمار

لم اجد في نفسي ميلا للمناقشة فقد تولدت لدي قناعة ان كارثة ما تخيم فوق الجميع وهي من الوضوح بحيث تبدو كلحظة عند تحققها في خضم مكابدات فاجعة ، الغريب ان الجميع يسير الى الحافة النهائية وكأنهم في حلم لا يملكون القدرة على الأستيقاظ .

كانت شهيناز قد اعدت الصالة لأجتماع تاريخي حاسم فقد بدا كل شيء نظيفا على نحو مبالغ فيه ولامعا في مهرجان الضوء الذي يتسلل الى كل زاوية فيما المولدة الكبيرة تجتر نفسها بصوت صاخب لا يمنعه احكام الشبابيك والأبواب. على الطاولة الكبيرة المهيأة عادة للطعام شرشف رصاصي ينسجم بتوافق هرموني مع الوان الستائر المتداخلة وفي الوسط مزهرية ملونه تحمل بضعة اغصان تقف فوقها ورود الجوري باربعة الوان مع مراعاة ان يكون الأحمر اكثر تسّيدا ، الى الطاولة كان رجل بدين وجهه ككرة القدم التي كنا نتناوبها قبل اكثر من اربعين سنة ونصر ان تكون من نوع (كريكر) والتي لم اوفق الى معرفة المصدر الذي جاءت منه التسمية، شعره كان مميزا فقد كان كثا يرتفع فوق جبينه بدوائر متساوية ، يبدو انه تأخر عن اعادة الصبغة السوداء فبدا الشعر بلون برتقالي باهت يبرز على نحو حاد التجاعيد التي كانت ذابلة ، على شفتية ابتسامة تبدو وكأنها تتلاشى وان ما تبقى هو ظل شاحب يتحرك بتواطئ ليصرح ، لا بأس قد يطول النقاش ولكني لن اترك المكان قبل ان تقتنعوا ، ليس من المهم كم سيستغرق ذلك فانا الذي يقرر انتهاء الوقت وغلق باب الحديث ، بالتأكيد كان انطباعي انه رجل واثق من نفسه حد الغرور الصلف .
كانت انوار تجلس قبالته ، شعرت انها تعلن مسبقا ان النقاش سيكون معقدا وانها مستعدة لمعركة طويلة : اصبروا علي ، انت ايتها الفتاة المفعوصة لن تلقيني في الماء فانا فاتحة عيني للآخر ولن افرط بشيء.
جلست على الأريكة
قالت شهيناز: ارجو ان تأخذ مكانك الى الطاولة !
قلت :افضّل ان اجلس قرب صدقي.
قال صدقي : انتم اصحاب المال وانا مجرد مشاهد جاءت به صدفة انه زوج ابنتكم !
شعرت بالمرارة التي يحسها رغم ما حاول ان يبديه من فكاهة فشهيناز تغلق كل المداخل وتحاول ان ترسم الخطوط حتى نهاياتها واثقة من أن مفاتيح اللعب كلها بيدها كما انها الأقدر ماليا ، انوار تنتظر متحفزة في عينيها بريق غامض

وكأنها تعلن انها ايضا مستعدة للمشاركة في اللعبة حتى النهاية ، وجهها يحمل رغم ذلك بؤسا عميقا كان اخي الكبير يقول ان دوافعة يأس من ان تستطيع ان تستمر في حياة طبيعية ، كنا صغارا حين كانت امي تصر ان ترافقني انوار الى المخبز القريب لنشتري ارغفة الخبز للأفطار، حينما نقف على الباب يلتفت نحونا العامل المكلف بوضع الأرغفة في كيس ورقي و هو يستلم النقود يقول ((عبوسا قمطريرا)) تشتمه انوار وهي تكز على اسنانها وتقول: "انت وامك عبوسا قمطريرا" يضحك العامل ويهتم بالزبائن فيما تقطب هي حاجبيها وتبعد خصلات شعرها عن وجهها بحركة منفعلة .

قال الرجل الممتلئ حد السمنة المفرطة

- يسرني ان اكون الخبير المخمن لأملاككم وانا مكلف بهذه المهمة من السيدة شهيناز، واعتقد انكم تعرفوني عدا السيد واشار نحوي.

قلت : فالح.

قال : نعم فانا اعرفك وانت صبي .

صمت لحظة ، كانت شهيناز قد طلبت مني ان لا اشير الى اني قادم من النمسا لأن هذه المعلومة قد تعقد الموضوع كما انها قد وجدت في مكتبة العائلة نسخا من مستنداتي الشخصية وهي كافية.

تابع الرجل : قبل كل شيء هل يوافق الجميع على قيامي بهذه المهمة؟

تلفتت انوار ولكنها لم تتكلم

قال الرجل ؛ حسنا لنبدأ ، البيت الذي نجلس به الان والمشيد منذ اكثر من سبعين سنة على قطعة ارض مساحتها الكلية تسعمائة وعشرة امتار يمكن القول انه في المتوسط لن يباع باكثر من مئتين وخمسة وسبعون الف دولارا، وعلى أساس ان سعر المتر مائتان وخمسون دولارا وان المبنى القديم ورغم الترميمات التي اجريت عليه لن يساوي اكثر من ثلاثين الف دولارا واعتقد بحكم تجربتي ان المشتري سيدفع هذا المبلغ عن قيمة المواد لأن البناء لا ينتسب الى الزمن الذي نعيش فيه فقد تغير الذوق كلية

قالت أنوار : السيد ناظم التاجر في القيصرية قال بانه مستعد ان يدفع اربعمائة الف دولار!

كانت بالكاد تسيطر على نبرات صوتها المرتعشة فيما تتحرك اصابع يديها المتشابكتين على الطاولة بعصبية ، انتبهت الى ذلك فانزلتهما بسرعة.

قال المثمن بهدوء وبلهجة واثقة : هذا كلام سوق ، عند الأستحقاق سيتراجع ولأني ادرك ما قد يثار من اعتراضات اعتبرها مضيعة للوقت فقد جلبت معي قائمة بعمليات البيع والشراء للعقارات في منطقتكم فقط ويمكن ان تلحظوا ان الأسعار تدور حول المعدل.

كنت استمتع بهذه المراقبة ، التفتت انوار نحوي وقالت : ما رأيك ؟
: انا ، لا اعتراض لدي
طافت ابتسامة شماتة حول زوايا شفتي شهيناز ولكنها لم تعلق ، خمنت انها تشعر براحة وان انوار لن تجد لها نصيرا وانه اذا ما لزم الأمر فانها تستطيع بسهولة ان تدفع بعمتها الى حالة العبوس اليائس وان مثل هذا الموضوع سيكون مدعاة لسرورها ، اشفقتُ على انوار.
- ياجماعة نحن اهل ولتجنب اي اختلاف فانا اتنازل عن نصف حصتي ، مهما كانت الى اختي وبالطبع هذا يشمل كافة مستحقاتي.
نظرات لوم خفيف رمقتني بها شهيناز في حين ابتسم صدقي بارتياح.
قالت شهيناز : اعتقد ان من المهم ان ننهي الموضوع بسرعة لأن موظف السجل العقاري سيحضر لتوثيق العقود وادخالها السجل الرسمي بعد حوالي الساعة !
قالت انوار : ومن يؤخركم !

وضع الرجل قيمة الدكاكين الثلاثة والعمارة والبيت على ورقة وطلب من الجميع التوقيع ، بدت انوار مترددة ولكنها وقعت ، القى الرجل نظرة على الورقة وطلب الوكالة التي اعطاها اخي احمد لأنوار ، ثبت الرقم والتاريخ ومكان الأصدار .

قال: سأصور هذه الوثيقة وسيكون مع الجميع نسخا منها اما النسخة الأصلية فستكون لدى السيدة شهيناز
استأذن مودعا ، كان كرشه يهتز بحركة ايقاعية وتصورت انه مبتهج بانجازه فقد بدا منشرحا وهو يستدير ليغلق الباب.
قالت شهيناز : المبالغ جاهزة فانا اعرف ان عمتي لا ترغب ان يبات المال العائد لها في بيتنا.
لم تعلق انوار .
قالت شهيناز : عمي العزيز ساسلمك كامل حصتك بموجب تقسيم الحصص الشرعي وانت حر باعطاء عمتي ما تشاء.
قلت : انا عند وعدي بأن اعطي انوار نصف استحقاقاتي
كانت انوار تبتسم راضية ولكنها لم تشكرني ، لم يسألها احد عما اذا كانت ستسلم احمد حصته فقد كنا على قناعة انه لن يستلم دولارا واحدا وانه قد تنازل عن كامل حصته لأخته .
خطر ان اسأل انوار عن احمد فأنا لا اعرف كيف يمكن ان التقية ، ردت

بصوت لا يمكن تبينه ان ليس من مكان ثابت له وهو الذي يتصل بها ان رغب بذلك.

- لقد انقطع لذكر الله

قالتها بلهجة تعطي الأنطباع انه فقد عقله.

- ولكن اليس هناك من اصدقاء له في المدينة !

- لا

قالتها على نحو جازم فكرت انها تتوجس من لقائي معه ، ربما لا تريد ان يعرف اني قد تنازلت عن نصف حصتي .

في تمام السادسة جاء موظف التسجيل العقاري وثبت اسعارا اخرى كانت شهيناز قد اتفقت معه عليها كما ثبت ان الجميع قد وهبوا السيدة شهيناز حصصهم في التركة

في الطريق الى الفندق شرح لي صدقي ذلك بان المقصود منه خفض ضريبة الشراء والغاء ضريبة البيع فالهبة بين افراد العائلة لا تخضع للضريبة ، قال بانه يستغرب ان تحرص العمة انوار كل هذا الحرص على جمع المال وانه يعتقد ان معها الكثير ، قلت له حالة تعويض ، حينما ينتشر المساء الحزين في المدينة يتسلل الى شقتها اشد عتمة وربما تحاول ان تجد في ما يوفره حرصها قوة تجعلها تتماسك ليس امام الحزن المعتم ولكن امام الوحدة القاسية.

قال صدقي: ربما !

كركوك بمزاج عكر تستسلم مرغمة لمساء قلق ينحت فيها الخوف والليل نصبا، يلقي بظلاله من فوق القلعة على مداخل الأزقة، فيما تكشف الشوارع فضاءات موحشة محكومة بالعزلة التي تفرضها غيوم متراصة مبهمة تشخص الى المدينة بجمود يبعث احساسا بالضيق .

بدأت قطرات متفرقة تسقط وكأنها انذار متقدم فتحت شباك السيارة ومددت يدي لألتقط الماء، لم يكن له اية رائحة والشارع لم تثره القطرات المتباطئة فلم اشم رائحة التراب ، عبرنا النهر الصغير، كان ممتلئ الضفتين ومياه متدفقة بغزارة تندفع جنوبا محدثة موجات متلاحقة ، فكرت ان النهر هو الوحيد الذي يحتفل في كركوك حتى انه غير مكترث بالصرخة الموجعة التي تطلقها المدينة وهي تحتج على الصمت الأخرس الذي يقف بوجه ضوضاء النهر معترضا بقوة بدائية.

نباح كلاب في الناحية البعيدة شمال المدينة، شرطي لجوج ومصاب بنوبة ضجر اوقفنا ، بدأ المطر يتلاحق محدثا صوتا ناعما وهو يرتطم بزجاج

السيارة، فتح صدقي الصندوق الخلفي لم يكن الشرطي يتطلع الى داخل الصندوق ، وجه ضوء مصباحه اليدوي الى وجه صدقي وتثائب فاتحا فمه على سعته فيما امتد ذقنه المستطيل وسأل صدقي عني.
قال له ضيف من بغداد وانقله الى الفندق.
قال: ولماذا لم يقضي الليل عندكم ؟!
رد صدقي بضيق اننا نسكن بشقة صغيرة !
قال الشرطي : ليكن الله في عونكم ! يمكنكم المتابعة
فاضل يجلس الى الشباك .
قال بانه قرر ان يبقى بانتظاري فقد احتاجه ، قلت له ان يصعد معي الى الغرفة
كان المال الذي معي يسبب لي قلقا.

قال : هل ترغب ان اظل معك في الغرفة ؟
- نعم فما سمعته لا يترك لي خيارا .
كنت اود ان اسأله عما اذا كان يعر ف بعض شركات تحويل الأموال خارج التعامل المصرفي ولكني وجدت ان هذا قد يعطي الأنطباع بالتعريض بعدنان.
قال فاضل : قد تواجهنا مشكلة عن نقاط التفتيش خارج المدينة عندما يشاهدون المبلغ ؟!
قلت له : وما الحل ؟
قال يمكنك ان تتصل بالأستاذ عدنان فمعارفه كثر في كركوك !
اتصل فاضل ببغداد ، كان عدنان في مزاج رائق.
قال له : استاذ ، صديقنا لديه بامية طازجة ولا يرغب بحملها معنا في السيارة! ويرغب بان يتكلم معك.
- مرحبا عدنان
- اهلا ، يبدو انك تستغل وقتك جيدا فخلال يومين استطعت ان تجني البامية ، يبدو ان حقول كركوك تطرح محصولها اسرع من بغداد.
كان فاضل قد اوضح بانهم معتادون على تسمية الدولار بالبامية لأن كليهما بلون اخضر ولتفادي المشاكل التي قد تنجم من الحديث المباشر والمكشوف
- لا تبالغ ، انها من حقل العائلة التي سبق ان حدثتك عنه.

- لابأس سنتحدث عن ذلك ولكن اطلب من فاضل ان يوصلك غدا الساعة العاشرة صباحا الى مكتب كاكة سردار الذي سأكلمه الآن وسيتكفل بالموضوع.

بعد ان اخذت حماما ساخنا لم اقاوم النوم الذي سيطر على حواسي كلية رغم الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف .
بدأت الأشياء والذكريات واحساسي بالوجود، كلها ومرة واحدة تتضاءل ، تبتعد وكأني اواجه لحظة انهيار، المدينة التي جئتها محملا بالشوق افقد تجاوبي معها بلا مبالاة محكومة بحالة رؤيا محايدة ، ميسون تقول ان خرائط المدن لا تشبه باية حال خرائط النساء، وانا اغرق في امتداد الخدر الى رأسي .
جرس الهاتف يرن باصرار يعيدني ثانية ببطء الى مجاهل الوجود الذي تحكمه سطوة الحياة في عمق ليل المدينة النائمة التي تنتظر موكبا آخر للحزن الساكن في مساحات الكارثة اللامتناهية لزمن آت لا ريب ، من المرشح للموت! هذا ما يفكر به الجميع ولكن بسرية تامة حتى ان كل شخص في المدينة يحرص ان لا يعرف جاره بهذا الهاجس
كان فاضل يتحدث بهمس : ولكن الأستاذ نائم !
يصمت لحظة ثم يعاود حديثه بنفاذ صبر : صدقني لا أستطيع لقد كان متعبا
اصدرت صوتا عندما رميت الأغطية : من هناك ؟
التفت نحوي : استاذ هذا السيد سردار صديق الأستاذ عدنان !
كان الرجل يتكلم بصوت مشحون بعاطفة حميمية : استاذ فالح ، كلمني الآن اخونا عدنان ، يسرني التعرف عليك وأنا ارغب من كل قلبي بأن نفطر غدا سوية ولهذا كنت مصرا على مكالمتك ، انت ضيف عزيز ولن اقبل ان تكون علاقتنا عبر تعامل تجاري ، سأكون عندكم الساعة التاسعة ، اعتقد ان هذا ملائم لك ، تصبح على خير
لم يترك لي مجالا حتى للشكر.

الفصل التاسع

حين استيقظت صباحا كنت اشعر بتحسن في مزاجي وبراحة عميقة في كياني كله ، لم انهض فورا من الفراش ، على التخت ما يزال فاضل غافيا ، له وجه طفل فقَدَ لعبته فهو منزعج ، هواء بارد واجهني وانا افتح الشباك لأتطلع الى الشارع ، المدينة صامتة وبضعة اشخاص يحثون الخطى على نحو يعطي الانطباع انهم يحرصون على ان لا يحدثوا صوتا ، لم أتبين وجوههم فقد كانوا يخفونها إتقاء الهواء الصباحي، وربما ايضا لأنهم يفضلون ان يحافظوا على عزلتهم ، التعرف على الآخرين يحتمل مخاطر غير محددة ولكنها ان وقعت فلن تكون الا كارثية ، احسست بغربة ، لم يبدِ (صدقي)رغبة في ان يلتقيني ، كما ان شهيناز كانت تودعني عند الباب دون ان تسألني عن خططي ليوم غد او تبدِ ولو تلميحا باحتمال ان تزورني، وأنوار كانت حريصة على ان تختفي فور استلامها النقود ، علاقات بدت لي ملامح الحياة الجديدة عبرها خالية من روح التواصل ، هل هذا وسيلة لتفادي الموت الذي يتجول في الشوارع ويضرب عشوائيا ، ينكفئ الأنسان الى داخله فلا يرى الا فجيعة تفتح ذراعيها ، وحينما يعود للبحث عن مشاركة قد تؤمن له نوعا من الحماية النفسية يجد انه منعزل وحتى اللغة في المدينة لم تعد الا استثناءات لا تتوافر فيها محطات استراحة ولو لبضع دقائق .

- صباح الخير استاذ.

كان فاضل قد استيقظ ، وقف وسط الغرفة وعلى كتفة منشفة حمراء صغيرة وقد اختفت الملامح الطفولية المنزعجة ، شعرت ان الأفكار التي تملّكتني لا يمكن ان تكون الوجه الوحيد للحقيقة، وان الأنطباعات التي تمنحها الرؤية في ضباب رمادي مربك تتداخل مع اهتزاز قناعاتنا تكون دائما متوترة ، فكرت ان عمق الجراح لن يكون دليلا على انها لن تشفى ، حسنا قد تحتاج الى وقت اطول ولكنها مع قليل من العناية ستلتئم.

- صباح الخير.
- عشرة دقائق وسأكون جاهزا.

توجه نحو الحمام ولكنه استدرك شيئا فالتفت:
- استاذ اذا لم تكن بحاجة الى وجودي أود ان استأذن للذهاب الى السوق !
يحاول ان يقول بأدب، لا أعتقد ان لي مكانا في دعوة السيد سردار،
شعرت بشيء من الرضا.
- بعد ان ننهي لقاءنا مع سردار سنذهب سوية للسوق الا اذا كانت لديك مشتريات لا ترغب ان اراها !
ابتسم باحراج:
- لا ، لا يوجد شيء .
- حسنا اذا يجب ان نكون جاهزين بسرعة

سردار الذي اجهل اسمه الكامل ولم تتح لي الفرصة للسؤال، في الأربعين طويل القامة على وجهه ابتسامة ثابتة، ربما كانت معه قبل ان يولد ، يحرك يديه وهو يتحدث وحينما يطلق ضحكة مجلجلة تطفر ابتسامته الى وجنتيه الممتلئتين فتشرقان بحمرة لافتة، قدم افطارا مبالغا فيه ، صحنا من القشطة واكثر من عشرين بيضة مسلوقة جيدا وارغفة من الخبز الطازج والحار وصحنا من العسل الطبيعي ، قال بان عليّ ان اتعود ثانية على الطعام العراقي ، تحدّث بامور شتى ، الجوز في كردستان والغابات التي بدأت تستعيد عافيتها، ومجالات العمل التجاري التي بلا حدود ، حين حاولت أن اعود به الى واقع الشوارع التي يسكنها الخوف وتختبئ فيها المفخخات، قال بان الموت يأتي صدفة ، قلت له انت مع الرأي الذي يرى ان الحب والموت وليدا الصدفة، قال لنفكر بالعمل، لم اسأله عن عمله ربما تراجع الفضول ،
كنا عموما مولعين بفضول حاد للأستعلام عن الأشخاص الذين قد نلتقيهم صدفة وحتى احيانا عن شخص ونحن في مقهى نتناول الشاي او نلعب (الطاولي) نستجدي الحظ لنحصل بالرمية التالية للنرد على (الدو شيش).

- هذا الذي يمشي على الرصيف المقابل ، يشبه طاووس فقد ذيله فهو يحس بحرج ، هل تعرفه !
- لا ولكن المرأة التي تسحب طفلتها اعرفها ، انها زوجة كاتب الضبط في المحكمة.
قال سردار بانه يرغب ان يرافقني بجولة في بعض القرى الجميلة الغافية على سفوح الجبال وان نرى الطبيعة الخلابة فقد يغريني ذلك بان اقنع بعض المستثمرين من اوربا ببناء قرى ومنتجعات سياحية ولمّح بانه

يستطيع ان يحصل على رخص استثمارية متنوعة بسهولة.
- يجب العمل بسرعة وقبل ان تتفتح العيون!
- ولكني لا املك طموحا تجاريا !
لم يعلق وحين سلمته المبلغ حرر لي ايصالا وقال ستستلمه في اي وقت ببغداد ، قلت افضل ان يكون مكان التسليم عمان ، اتسعت ابتسامته.
اخرج جهاز الهاتف النقال وكلم شخصا ثم طلب منه ان يسلمني المبلغ فور اطلاعه على الأيصال الذي معي.
- سوف لن نتكلم بالعمولات فقد طلب الأخ عدنان ان تخصم من حسابه معنا ، وهذا عنوان وكيلنا في عمان ورقم هاتفه.
قال فاضل : هل ترغب في التجول في السوق ؟
قلت : سأراقب مشترياتك !
اشترى بعض (الكرزات) الأيرانية ومن السما وثوبا نسائيا قال انه لوالدته، اقنعته بعد عناء بأن ادفع المبلغ وان عليه ان يقبل ذلك كهدية ، قال بأن السيد عدنان سيستاء ، قلت له ان يدع لي امره.
احيانا تأتي الأفكار من مكان ما تستحوذ عليك على نحو عصي على الأدراك ، كان فاضل يضع ما اشتراه في الصندوق الخلفي وكنت استعد لفتح باب السيارة ، نحن نغادر كركوك وقد كفّ المطر وبدأت الغيوم بالتفكك ولكنها لم تنحسر، وعلى جانبي الشارع ما تزال مياه الأمطار تتجمع مكونة شريطا يتوقف عند فتحات المجاري المغلقة ، شعرت أولا بشيء من الأسف لأني أغادر دون ان ابذل مجهودا حقيقيا لرؤية أحمد الذي قد لا تتاح لي الفرصة ثانية لرؤيته ، احمد أخي الصغير الذي كان منذ طفولته يميل الى العزلة ولم يبد ميلا للدراسة رغم انه انهى دراسته الجامعية ، كان ذكيا بالفطرة كما كان يقول ابي الذي لم يحاول ان يرسم له مسار حياته كما فعل معنا ،ربما لأن احمد كان هادئا بعيدا عن اية مشاكل وربما لأن والدي قد تعب من متابعتنا.
توجهت نحو فاضل : هل تعرف احد أئمة الجوامع في المنطقة ؟
استدار نحوي بكليته وفي عينية نظرة فضول اكثر منها استغرابا:
- عفوا استاذ ولكن لماذا؟
شعر انه تسرع بالرد
- لأني اريد ان اسأله عن شخص !
- اعرف شخصا ممن يعرضون اعمالا خارقة في حلقات الذكر وهو ايضا امام جامع.
- لنذهب اليه

رغم كل ما نسمعه و نقرأه عن الغرائب التي تحفل بها الحياة، الا انا نفاجأ أحيانا بما لا يخطر على بالنا
قال الشيخ الذي يرتدي ثوبا قصيرا يكشف عن ساقين شديدا السمرة ومليئتان بشعر خشن فاحم السواد كأنها مزروع بعناية فائقة:
- الشيخ احمد فضيل الدين ، يرحمنا واياه الله!
رفع يديه يقرأ الفاتحة ، كل شيء في المدينة مفتوح على المجهول ويقف الموت في كل المنعطفات.
- ولكن كيف مات ؟
- كان الشيخ احمد بحال لا يمت لهذا الزمن بصلة ولهذا انقطع عن العالم وعاش في غرفة فقيرة ملحقة بالجامع ورفض ان يتناول في ليله ونهاره اكثر من رغيف خبز وقدح ماء وبضع حبات من التمر واذا لم يتوفر فيكتفي بالخبز ، لقد حذرناه من مغبة ذلك ولكنه كان يصمت ويتطلع بعينبن ملؤهما تقوى لامتناهية.

كانت الغرفة خالية من اية قطع اثاث ، حصير عليه بساط صوفي ووسادة من القطن وغطاء خفيف.
- هنا عاش الشيخ فضيل الدين
- ولكن ابونا لم يكن يدعى فضيل الدين !
- أعرف ذلك ولكنه اختار الأسم بنفسه.
كانت انوار تعرف بموت اخيها ولهذا لم تشجع على لقائه ، هل يمكن ان يفاجئني امر ما بعد هذا ، شعرت بصدمة تذهب بي حد الذهول وانا اعود ثانية الى السيارة ، هل كركوك وحدها المدينة الملعونة في العراق اليوم ، شعرت اني في الغربة تعرضت الى ما يشبه توقف حواسي عن الأنفعال فقد كانت الحياة بتنظيمها الميكانيكي وبدقة تحركها لا تترك مجالا للأثارة ، السبب والنتيجة لا يتضمّنان اسرارا نحملها معنا الى سرير النوم ، حين طلب مني ان اعود الى مراجعة مكتب الشؤون الأجتماعية بعد أربعة اشهر داخلني استغراب وشيء من الأستخفاف، ولكن تتابع المواعيد وانتظامها جعلني انسى ذلك واتصرف بآلية وهكذا اصبح من النادر ان يحرك حواسي القلق الوجودي كما يقول (آزوري)، في العراق انت مضطر للتفكير بكل ماتراه او تسمعه والا فاتتك امور قد يلحق بك الضرر من عدم اخذها بالحسبان.

لم تأخذ منا العودة كثيرا ذلك انه نادرا ما نصادف رتلا عسكريا يضطرنا

للتوقف لأفساح المجال له، كما ان ظاهرة استعمال الممر الخطأ في سير المركبات كانت قد انعدمت ، قال فاضل ربما يعاني الجنود الأمريكان من الضغط النفسي الذي يدفعهم لعدم التحكم بتصرفاتهم العدوانية، وحاول ان يعطي تحليلا لهذا بالقول ان الجنود الأمريكان عدوانيون بطبيعتهم والخوف يدفع بهذه العدوانية الى السطح.
في الفندق لم تكن جانيت في الخدمة ، التقاني النادل ذو الرأس البندولية بجملة من الأخبار وهو يصحبني حاملا حقيبتي الى الغرفة ، أم جواد جاءت الى الفندق لتقابل جانيت ، قالت لها انها لن تسمح بأن تختطف ابنها نصرانية ، بدأ صوتها يرتفع رغم توسلات جانيت بأن تتحدث بهدوء، أو ان تذهب معها الى احدى الغرف الفارغة ، لم توافق واكملت صراخها بسلسلة من الشتائم والتهديدات، وقد اصيبت جانيت انهيار عصبي وهي منقطعة عن العمل منذ ظهر امس، عبد السميع وجواد جاءا هذا الصباح ليعتذرا الى جانيت وحين لم يجداها اكدا انهما سيذهبان الى منزلها في شارع السعدون. كان يتكلم بسرعة كأنه في سباق لينهي كل المعلومات التي لديه في حدود المسافة بين مكتب الأستقبال وغرفتي.

كل حواسي المعطلة تنبهت ، شعرت اني امام مهمة خاصة بي ، موضوع يظل هدفا لا بد من الوصول اليه ، كنت اشعر اني امام مهمة شاقة ولكنها غير مستحيلة ، رواية تركها مؤلفها وابطالها حائرون امام مسالك مغلقة وهم لا يملكون الكفاية من القدرة على اتمام السير في الخط الدرامي الذي صنعه المؤلف ، فكرت انها خيانة ان يتركوا لوحدهم ليواجهوا مصيرا بالغ التعقيد تحت وطأة هذه الظروف المعقدة كلها، ولكن الروائي خلق ابطاله على الورق وتابع مصيرهم حتى منتصف الطريق أما انا فامامي أبطال حقيقيون بحاجة الى المساعدة ليواصلوا حياتهم ، عشاق في زمن الموت المفتوح الذراعين لكل اشراقة حب تزيح كوابيس الظلام ، كنت وانا استعد للسفر قد هيأت نفسي لسفرة دونما مفاجآت ولكن العراق يختزن الكثير ، كان ولايزال ، وهو يحتاج كل هذا ليبقى ينبض بعنفوان الحياة .
- متى تنتهي فترة عملك ؟
إلتفت النادل وهو لا يزال يحمل حقيبتي عند باب الغرفة:
- لماذا ؟
ابتسمت رغم كل الأفكار التي كانت تتزاحم في مخيلتي ، العراقيون متشابهون !
- لأني ارغب ان أزور جانيت في بيتها

لأول مرة أرى رأسه يتوقف عن حركته البندولية وتطرف في عينيه رؤى مستغربة
- ينتهي عملي في السابعة ، ولكن اعتقد ان هناك صعوبة في ان اذهب معك الى شارع السعدون ومن ثم الى بيتي في (كمب سارة) سيكون الوقت متأخرا ومن المتعذر ان اجد سيارة مساء
- يمكن ان تعود معي الى الفندق وان تخطر اهلك بذلك
ابتسم بأسى واضح ، ابتسامة منكسرة وكأن حزنا مشروخا يصعد الى عينيه

- أنا اسكن في غرفة مع عائلة اعرفهم ، فأمي توفيت وانا صغير وأبي تزوج وأنا في العاشرة وتركني عند بيت خالتي وغادر الى بعشيقة ، انا متوائم مع وضعي ولكن للعائلة ستة اطفال ربما يتوقف ابليس ليتعلم منهم ومن حسن الحظ اني طوال النهار في العمل والا كنت سأبحث لي عن مكان شاغر في (الشماعية).
تحسنت ابتسامته ، بدا الحزن المشروخ يمتلئ بتلاوين شاحبة وتابع:
- على العموم انا جاهز للذهاب معك فجانيت تستحق ان اقدم لها خدمة .
كنت افرغ حقيبتي حينما علا صوت رنين الهاتف، كان عدنان يهنئني بسلامة العودة ويقدم تعازيه لوفاة أخي ويأسف لأني لم استمتع برحلتي الى المدينة التي كنت احلم بها ، ادركت ان فاضل قدم له تقريرا وافيا ليس فقط عما رآه ولكن عما خمنه ايضا.
- سأتركك الليلة ترتاح ولكن ضع في حسبانك ان نهار الغد وحتى ساعة متأخرة سيكون لي ، سنلتقي بالرجل المهم وسنتحدث بامور مختلفة وهو في الحقيقة متشوق لمقابلتك.
في السابعة كان هناك طرقا خفيفا على الباب ، النادل عاود رأسة حركته البندولية ولكني لحظت انه يتمتع بذوق واضح في اختيار ملابسه.
بيوت السعدون التي كانت في يوم ما سكنا متميزا في بغداد، لا زالت تحمل في مظهرها شيئا من رفاهية الماضي وشموخه رغم ان مجارير المياه الآسنة جزءا من خرائط ازقتها وان رائحة مختلطة من ابخرة الطعام المنبعثة من البيوت المزدحمة بالعوائل التي تتكدس في غرف متجاورة تختلط بأكوام النفايات المنتشرة على امتداد البيوت ، كانت البيوت ترتفع عن رصيف الزقاق بثلاث او اربع درجات فوقها باب خشبي منقوش بعناية وتشي زخرفته بان صانعا ماهرا قضى وقتا مضنيا بزخرفته وكذلك بتزجيج الشبابيك في الطابق الثاني

لم يفتح الباب عندما طرقته بقوة ، كان المساء قد استكمل بناء مملكته وبدا الزقاق معتما وهدوء مريب ينتشر متلمسا طريقه بحذر يدفع بسكان الدار الى عدم الأستجابة ، عاودت الطرق ثانية ، سمعت صوتا ضعيفا يرتفع مترددا:

- من هناك ؟

- انا ..

فكرت انه سيبدو من العبث ان اعلن عن اسمي

- من انت ؟

كان الصوت منزعجا ومتوترا فزوّار الظلام غير مرغوب بهم ، تقدم النادل وقال:

- انا يوسف .. يوسف ابن ميشو .. ومعي ضيف يرغب بزيارة عائلة جبوري

- دقيقة

فتح الباب الذي اصدر نواحا حادا ، في الأعلى كان وجه رجل ابيض بعينين بنيتين واسعتين تملؤهما نظرة مرتبكة ومتسائلة وفي الأسفل اكثر من خمسة عشر وجها صغيرا تنتصب بارتفاعات متباينة ، كانت العيون معابئة تتطلع بانتظار ان تحصل مفاجئة ما ، بعضها لا تزال بقايا طعام في افواهها ، كان الأطفال حفاة رغم برد المساء الذي يشدد قسوته قبل ان يحل الربيع في فضاءات بغداد.

- نعم !

- الأستاذ يرغب بزيارة جانيت

استدار الرجل وهو في مكانه وصرخ:

- جبوري ... الجماعة يريدونك

صرخ الصغار مرة واحدة

- جاؤا لجانيت

ركض بعضهم وهم يتدافعون الى السلم المقابل للباب وهم يرددون:

- جانيت .. انزلي

كانت جانيت كأنها تقوم من نومها توا ، في عينيها نظرة متعبة ومنكسرة ، شعرت انها انسانة مستوحدة يصرخ الصمت الذي يسكن شفتيها المضمومتين بحزن ليكشف عمق الألم الذي كان يملئ قلبها.

استغربت مجيئنا وهي تدعونا للدخول على مضض ، ربما لم تشأ ان اعرف كم هو مؤلم الفقر الذي تعيش فيه، ولكني كنت افكر وانا في الضفة

المعاكسة ، ان امرأة بهذا الواقع المرير الذي لا يمكن تصور ان يرشح بغير احاسيس الأحباط و العجز تتخطى دوّارات الجحيم لتكتب شعرا ينضح برقة (القداح) وهو يزهو بعطره في صباح ندي وتجد لديها فائضا من الأحاسيس لتعشق .
درجات السلم كان بعضها متآكلا وخشب الحاجز الممتد الى اعلى قد اقتلع بالكامل ، الغرفة يضيئها مصباح نفطي تشخص قطع أثاثها في شفافية العتمة التي يفرضها الضوء الشاحب والمنفلت من سخام زجاج المصباح ، كأنها شاهد اثبات لا يمل من ترديد الأتهام. وقف رجل في الستين يحمل وجها متعبا قال بانه ابو جانيت، والى جانبه شاب طويل القمة كان قد حلق شعر رأسه فبدا كشبح في حقل الخضار قال ان اسمه ريمون ، قالت جانيت ها انت تتعرف على عائلتي ، كانت لهجتها مستسلمة ، قلت انا سعيد بالتعرف عليكم ، الغرفة واسعة يطل الشباك الكبير على الممر الذي يشكل مربعا فوق الباحة التي تستدير حولها غرف الطابق الأسفل ، الى اليسار امامك وانت تدخل الغرفة سريران حديديان قالت جانيت واحد لها والثاني لأبيها اما ريمون فانه ينام على (دوشك) اسفنجي يختفي نهارا تحت احد السريرين، الى الشباك منضدة خشبية عليها بضعة كتب مرصوفة فوق بعضها ودفتر مفتوح وعدد من اقلام الرصاص تم بريها بعناية وفي الوسط سخان ماء نفطي اعدت علية جانيت الشاي.
فجأة ارتفع صراخ الأطفال بفرح صاخب فقد جاءت (الوطنية) ، قالت جانيت الأطفال ينامون عادة مبكرين فالليل يجتاح المدينة واجساد الناس ولا يخلق غير الضجر والوحشة وغموض يدفع الى الحذرباستثناء ساعات عودة الكهرباء ، كان الشاي لذيذا بورق النعناع وبدأت جانيت تستعيد بعض حيويتها وتتحدث بثقة اكبر، تخرج من أحاسيس الأحباط والمهانة التي تعرضت لها في الفندق وهي تستمع الى شتائم ام جواد وتهديداتها المباشرة والصريحة ، قالت ابي متقاعد ، كان عاملا في وزارة الصناعة وراتبه بدأ الان بالتحسن، أما ريمون وهو بالمناسبة اخي الوحيد فقد ترك الدراسة في ثانوية الصناعة ليشتغل عند سمكري سيارات ولكنه الآن عاطل بقوة السلاح! ويفكر بالرحيل فوق امواج الهجرة ، ابي لا يمانع قال اذا ماغادرتما فاني سأذهب الى القرية، هو يعرف بزواجي من جواد الذي يرى فيه شابا عالي التهذيب ولكنه متردد، قلت له ومن يملك اتخاذ قرار سريع في ظل هذه الأوضاع ، اني اتحدث امامه وانت تعّرفت على (جواد) فما هو رأيك ؟ امي تركتنا وهجرت مع اخيها منذ خمس سنوات ولم تعد تسأل عنا.

كنت اسرح وهي تتكلم في هذا التناقض بين الحقيقة التي اراها والظلال الغارقة في شحوب موح التي تحيا جانيت في افيائها عندما تكون في الفندق، او حتى عندما تذهب الى اتحاد الأدباء لتستمع الى الشعراء ولتسهم في مداخلة تفيض باحساس مرهف ، لهذا فوجئت بالسؤال ، قلت ان جواد شاب متوازن واعتقد انه اهل للمسؤولية ، لم يعلق الأب اما ريمون فقد ذهب الى الأسفل ليدعو الأطفال الى قليل من الهدوء فقد اطلق الضوء كل طاقاتهم التي كانت راكدة ، قال الأب هنا يعيش ستة وثلاثون شخصا مكدسين في ثلاث عشر غرفة ، النهار عادة اهدأ فالرجال يذهبون للعمل والأطفال اما الى المدارس أو يسرحوا ببيع بعض السلع والنسوة مشغولات في المطبخ ، لدينا مطبخ واحد واربعة مراحيض مشتركة اثنتان في كل طابق وهناك حمّامان ، نعن نتعايش مع واقع مؤقت فالأمريكان لن يدعوا الوضع على ماهو عليه ، الأمر يتعلق بحسابات سياسية ، أقول هذا رغم اني عادة لا أثق بهم !

قلت لجانيت ان لدي حديثا مهما معها ومع جواد ولهذا فاني ارجو ان يحضرا في الساعة العاشرة صباحا الى الفندق ، قالت انها في اجازة لمدة اسبوع وستحضر مع جواد .

في الفندق اتصلت بعدنان وقلت له ان موعدنا في الثانية عشر ظهرا ولكنه حاول ان يحتج ، التلفاز يعرض وزير الكهرباء يرد على اسئلة بعض المواطنين ومقدم البرنامج يبتسم باشفاق، ولكن بتحفز وهو يسأله عن موعد محدد لعودة الكهرباء، بدا الوزير محرجا ولكنه لم يكن يعرف ان جواد رمى القلم واقفل التلفاز وهو يردد كيف يمكن لرجل ان يكون بكل هذه الوقاحة!

تمددت على السرير وانا اشعر براحة غريبة والليل يرشح بصمت ثقيل والشارع مضاء ، تتدفق انوار فضية من المصابيح الجديدة التي اعلنت امانة العاصمة انها مستوردة وفق آخر المستجدات في عالم الأضاءة.

لقد انتهت حالة المد والجزر وها انا أقف في وسط بقعة الضوء وقد رحل الفراغ الخاوي الذي كان يسكن قلبي ، انا الان القي مرساتي على الشاطئ الاخر واحفر بيدي نافذة في هذا النفق شديد العتمة ليتسرب منه الضوء المحاصر في البقعة، حيث اقف ، الى حيوات اخرى، قالت رؤى وانا اناقشها حول مقطع في ديونها ((احلام العاصفة)) انت منسجم مع نفسك ، لم اتابع معها ولكني ادرك الآن انه اذا لم اكن منسجما مع نفسي فكيف سأعيش بسلام في هذا العالم المتناقض!

كنت انحدر ببطء في عمق خدر النعاس اللذيذ منقطعا عن العالم وانا اشعر

بسعادة غامرة لأضع طريقا جديدا لأبطال الرواية التي انا ملزم بمتابعة التطور الدرامي لحياتهم ، كما اني منفعل بمراقبة التحرك في السكون الذي كان كثيفا في مدارات كياني والذي علي ان اضبطه لأتحكم باتجاهاته. طرق ثابت على باب غرفتي ايقظني ، وانا انهض من فراشي شعرت كأني كنت نائما منذ عام ، هدوء وراحة عميقان يشملاني ، كانت جانيت تحمل صينية عليها بعض الطعام وكان معها جواد يحمل حقيبة صغيرة وقد نبتت لحيته ، بدا واضحا انه بمزاج مرتبك.
- صباح الخير استاذ ، اعتقد ان لي الحق بان اوقظك على هذا النحو بعد ان اقتحمت حي السعدون بالأمس ، الساعة الآن العاشرة والنصف ، سنتركك عشر دقائق فقط ونعود لنفطر معك !
كانت تتحدث بحيوية معدية ، دخلت الحمام ، كانت الدقائق العشر كافية فعلا.
قلت لخدمة الغرف ان يرسلو مع جانيت ابريقا كبيرا من الشاي فردوا بأنها ربما الآن على باب غرفتي !
لم نتبادل حديثا ونحن نفطر ولكن جانيت كانت غير التي رأيتها امس ، في عينيها حيوية مدهشة ورغم انها لم تتكلم ، الا اني كنت استطيع ان ارى فيضا من الحديث تكتنزه شفاهها ويطفح في عينيها عكس جواد الذي لا يزال تحت تأثير احساسه بالخجل مما فعلته امه .
دخلت كعاصفة عمياء الى الفندق ترتدي لباسا اسودا لا تسفر الا عن وجه تسده عينان وحشيتان ، لبوة مهددة بفقد وليدها فيما ظمأ قاس يأكل حناياها ، لم تصل الى جانيت التي هربت الى الداخل ، احتمت بالحاجز الخشبي المتين لمكتب الأستقبال ولهذا أسمعت ام جواد الجميع كم هي جادة في ان تفصل بين جانيت وبين جواد ، سبتها على نحو قاس وبكلمات فيها الكثير من الفحش الذي لا يتناسب وهيئتها المتشددة.
كانوا على الغداء حينما قال جواد انه قرر ان يغادر الى عمان خلال اسبوعين على الأكثر ، قال ابوه وهل ستصطحب جانيت ، رد جواد وهو يختلس النظر الى امه : نعم ، قالها بتؤدة ولكن بتصميم جازم ، لم تصل يدها الى الفم ، توقفت في منتصف المسافة وكأنها تجمدت في لحظة توقف فيها الزمن، دمية من الشمع القاسي ، كم بدت امه مرعبة كان يرى في عينيها قبائل الجن في حفلة عرس صاخب.
قالت بصوت مرعد كأنه يأتي من عالم غير الذي نعيش فيه : النصرانية !
شعر بغيض وبرغبة مجنونة ان يعاكسها : نعم
قالت: لن تتزوجها!

قال : ولكني تزوجتها بالفعل.
نهضت وهي تترنح وقالت : سأقتلها.
قلت له : ولكن الا تعتقد انك لم تعالج الأمر بروية؟
قال نعم ، ولكني كنت اشعر برغبة لا تقاوم ان اسير بهذا الأتجاه كنت اتبع بطلا على الورق يرفض ان يتوقف.
قالت جانيت : ليس لكل ما حصل من تأثير لقد قررنا ان نغادر بعد غد.
قلت : هذا ما وددت مناقشته معكما ، استمعا الي جيدا فما أعرضه صفقة عمل ، ربما تبدو في جوهرها مساعدة لكما وهذا ما لا انكره ولكن من وجهها الثاني هي استثمار بالنسبة لي ، فيه قدر من المغامرة ولكنها مغامرة صغيرة في حالة الفشل لن تؤثر على اوضاعي.
صمتا يتطلعان الي بشيء من الفضول المتلهف
- قصائد جانيت ستصدر بكتاب تتنازل عن حقوقها فيه لقاء مبلغ الفي دولار.
توجهت نحوها وتابعت.
يجب الأعتراف بأنك غير معروفة وان شركة التوزيع قد تجد صعوبة في البيع ، الأنتشار يتطلب الصبر. كانت فرحة كبيرة تشع من عينيها باشراق طفولي متوهج رغم اني تعمدت ان اتحدث بلغة تجارية باردة تؤشر المسافة الضيقة بين الربح والخسارة مع لمحة متفائلة عن الأستثمار باعتبارة يكمن في رحم المستقبل حيث يمكن ان تخفي كل خططك.
- اما بالنسبة لرواية جواد التي وعدته بأن أقوم بنشرها فأني سأدفع له ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار ويتنازل عن كل حقوق طباعتها.
قال جواد بتردد : ولكنها ستصدر بأسمي !
- بالتأكيد فأنا لم اكتب حرفا في فضاء الأبداع الأدبي والكلمة مسؤولية ، اضيف الى ما تقدم حجزي مسبقا لخمسين نسخة من الرواية الفائزة بمسابقة الأبداع الأدبي والتي ستطبعها شركة النشر والتوزيع الأردنية وعلى اساس ان النسخة بخمسة دنانير فأني سأدفع مئتين وخمسون دينارا اردنيا مضافا اليها خمسين دينارا اجور البريد الى النمسا.
كنت قد اعددت المبلغ مسبقا ، أخرجته من الحقيبة وسلمته لجواد
- هذا كل ما تطالبوني به وعلى افتراض انكما موافقان.
تطلع كل منهما الى الآخر ، كان الصمت معبرا وكنت اشعر اني اطفو فوق بحار صافية الزرقة ويمتلئ الأفق بأشرعة بيضاء فيما اسراب من نوارس تلهو بمعابثة نزقة على الشاطئ القريب ، تغمس مناقيرها في الماء الأزرق بنشوة ثم تصعد مع ضوء الشمس عبر التماع الشعاع الذي يهبط

مقبلا الماء ليذوب في لجته ، موجة فرح من فضاءات منسية تتقدم ببطء
نهض جواد نحوي وقبل رأسي
- أستاذ ارجو ان تتقبل شكرنا.
قالت جانيت : لن أقول شيئا!
قلت: بقي امر واحد لا بد من حسمه !
تطلعا نحوي بشيء من التوجس فأدركت انهما مازالا يحملان جينات الخوف ، تذكرت حادثة مضى عليها عشرون سنة ، كنت وزميل في اسطنبول ودعتنا الشركة التي كنا ضيفيها الى عشاء في مطعم يقدم وصلات موسيقية وعرضا لمسرحية كوميدية من فصل واحد ، كان العرض يسخر من رئيس الوزراء تركت اوزال، ويقدمه على انه تابع صغير للحكومة الأمريكية وبين ضحكات الحضور كان زميلي يستغرب ذلك ، كان كلانا متحفظا تجاه الآخر وكنا حين نتحدث عن صدام حسين نرفق قبل اسمه (القائد) وبعد اسمه حفظه الله ، التفت مضيفنا وقال ،سيد فالح ،ألا تعتقد انكما تبالغان ، انتما في تركيا وفي مطعم وتتكلمان عن رئيسكما كما لو انه أحد الحضور ، نحن نشاهد هذه المسرحية ونضحك ، كان (اوزال) رئيسي في العمل حين كان في شركتنا وكنت أحد مسؤولي حملته الأنتخابية كما لا أزال اعمل في الحزب الذي يتزعمه ولكن هذا شيء آخر ، قال زميلي الذي كان قد انهى كأسه الثالثة: في جزر الواق واق يهرب سعد لأنهم اقتادوا سعيدا الى المشنقة ! سألني مضيفنا ، ماذا يقول صديقك ؟ قلت أنه معجب بأداء الممثلين !.
في الصباح سألني زميلي وهو يحاول ان يبدو لا مباليا ، ماذا فعلت مساء امس ، لقد شربت كثيرا !، قلت له لقد كنت تضحك على ملابس (اوزال) الفضفاضة فقد بدا فيها مهرجا وهو يتدحرج على المسرح .
كانا يتطلعان بفراغ صبر
قلت : مساهمتي في تكاليف شهر العسل
ابتسما براحة
قالت جانيت : استاذ هذا كثير !
قلت : انتظر قصائد جديدة لأستكمال ديوانك الشعري
قال جواد : لن يمنعها شيء عن ذلك
قلت : حسنا هذا عنوان الفندق في الدوار الثالث بعمان، ولديكم حجز لمدة عشرة ايام وتذكرة ذهابا وايابا بالطائرة ، لديكما عمل كثير هنا ، في اوربا انتما عدد في تعداد اللاجئين اما هنا فأنتما عنصر فاعل ومؤثر ، ستعمل جانيت سكرتيرة بمكتب تجاري انا احد مؤسسيه وستحضر كل الندوات

الشعرية وستكتب وانت ايضا ستعمل في مخازن الشركة بعد ان تتلقى دورة سريعة في العمل المخزني وسيكون لديك الوقت الكافي لتساهم في الأبداع الأدبي.
لم يردا ولكنهما تبادلا نظرات مستفهمة طويلة.
حين غادرا الغرفة شعرت بان حياة اخرى تتمدد في الشارع الذي تعبره غيوم متقطة تسرع في سماء تملؤها شمس آذار التي تبدو وكأنها تبذّر في الضوء الذي تنشره على بغداد ، حالة حب عطاؤها بلا حدود !
في الصالة طلبت شايا ، جائني النادل يهز رأسه وفي نظراته فضول ، قال بأن جانيت قدمت استقالتها
في الثانية عشر جاء عدنان.
قلت له : لقد درست عرضك ويسرني ان اوافق عليه.
صافحني ستحضر غدا لأستلام مستحقاتها ، قالت انها ستغادر الى عمان ، كانت فرحة !
لم اعلق.

قال : كنت اعرف انك لن تخيب املي .. انا احتاج معاونتك
قلت : لقد تعرفت بغداد على الكراهية ، سارت بكل دروبها وهي الآن تغادرها الى الضفاف الأخرى.